

مهرجان القراءة للجميع

الأعمال الأدبية

مكتبة
الأسيرة
1999

بهاء طاهر

بالأمس حلمت بك



الأعمال الأدبية



Bibliotheca Alexandrina

بالأمس حلمت بك

بالأمس حلمت بك

بهاء طاهر



مهرجان القراءة للجميع ٩٩

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الإبداعية)

بالأمس حلمت بك

تأليف: بهاء طاهر

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ: هيئة الكتاب

الغلاف

والإشراف الفني:

الفنان: محمود الهندي

المشرف العام:

د. سمير سرحان

على سبيل التقديم

وتمضى قافلة «مكتبة الأسرة» طموحة منتصرة كل عام،
وها هي تصدر لعامها السادس على التوالي برعاية كريمة
من السيدة سوزان مبارك تحمل دائماً كل ما يثرى الفكر
والوجدان ... عام جديد ودورة جديدة واستمرار لإصدار
روائع أعمال المعرفة الإنسانية العربية والعالمية فى تسع
سلاسل فكرية وعلمية وإبداعية ودينية ومكتبة خاصة
بالشباب. تطبع فى ملايين النسخ الذى يتلفها شبابنا
صباح كل يوم .. ومشروع جيل تقوده السيدة العظيمة
سوزان مبارك التى تعمل ليل نهار من أجل مصر الأجل
والأروع والأعظم.

د. سمير سرحان

بالأمس حلمت بك

(١)

أذهب الى العمل في الصباح ، وأعود في المساء للبيت .

يحدث هذا خمسة أيام في الأسبوع ، يحدث هذا في مدينة
أجنبية في الشمال . حين أنزل في الصباح كثيرا ما أجد على
محطة الأتوبيس فتاة شقراء في خدنها طابع الحسن ، بمجرد أن
ترانى قادما من بعيد تحول وجهها للناحية الأخرى . لا تنظر
في وجهي أبدا مهما طال وقوفنا .

وعندما أعود الى البيت في المساء أفتح التلفزيون وأغلقه
وأفتح الراديو وأغلقه وأتجول قليلا في الشقة الخالية . أعدل
أوضاع الصور على الحائط والكتب في الأرفف ، أغسل
صحونا ، أكلم نفسي في المرآة قليلا . يتقدم الليل .

وفي معظم الليالى يكلمنى فى التليفون صديقى كمال الذى
يسكن فى مدينة أخرى • يسألنى هل هناك أخبار ؟ أقول
ليست هناك أخبار ، فيشكو أحواله قليلا وأشكو أحوالى
قليلا ، وأخيرا يتنهّد ويقول ربما أطلبك غدا •

بعد فترة أنام • غالبا ما يحدث هذا وأنا أقرأ •

فى هذا الأسبوع أهدانى فتحى ، زميلى فى العمل كتابا عن
الصوفية • كنا قلة من العرب نعمل فى مؤسسة عربية فى هذه
المدينة ولكن رئيس المؤسسة ومعظم العاملين فيها كانوا من
الأجانب • فى هذه الظروف أحب فتحى الصوفية • ولما كنت
عائدا الى البيت فى المساء بدأت أقرأ الكتاب فى الأتوبيس •
قرأت قليلا الى أن قال الكاتب ان الروح تغادر الجسد فى بعض
الأحيان وتقوم ببعض الجولات • يحدث ذلك بالليل أثناء النوم
وان لم يكن شرطا • تلتقى الروح أحيانا بأرواح شريرة وأحيانا
بأرواح طيبة ، يحدث اتصال •

شعرت بالخوف وأغلقت الكتاب •

سألنى جارى فى الأتوبيس ما هذه اللغة ؟ وعرفت أنه غريب
مثلى لأن أهل هذا البلد لا يكلمون أحدا • وعندما رددت عليه

قال لغة طريفة • معظم الحروف تكتب تحت السطر • قلت له
اننى لا أفهم فأمسك الكتاب وفتحه وأشار الى الراء والواو
والزاي والى الميم والعين والحاء فى أواخر الكلمات • أشرت
بإتصار الى الألف والباء والذال والطاء • قال ولكن عندما
تنظر الى الصفحة تلاحظ أن معظم الحروف تحت السطر • سألته
عن معنى ذلك فقلب كفيه •

عندما وصلت الى البيت طلبنى كمال فى التليفون مبكرا
وسألنى عن الأخبار • قلت له عن الجولات التى تقوم بها الروح
وأن معظم الحروف تكتب تحت السطر • سكت قليلا ثم سألنى
الجو بارد عندكم ؟ قلت نعم ، فقال عندما يسقط الثلج • ثم
سألنى فجأة ، كيف تتجول الروح أين تذهب ؟ قلت لا أعرف
وفى الغالب لن أقرأ الكتاب • قال هل يمكن اذن أن ترسله لى
بالبريد ؟ فوعدت أن أفعل ذلك •

فى الصباح ذهبت الى العمل • كنت سريعا ونشيطا لأقاوم
البرد ، ولكن فى محطة الأتوبيس كانت الشقراء هناك وحولت
وجهها • دهشت من نفسى لأننى أهتم بذلك وقلت ملمون
أبوها •

كان كتاب الأرواح معى لكى أرسله بالبريد • ولما ركبت
الأتوبيس قلت لنفسى انه ربما كانت المسألة عادية وربما يجب

أن أقرأ صفحة أو صفحتين لأعرف كيف تتجول الروح وماذا تفعل ولكنني قاومت ذلك • وبينما كنت في الأتوبيس بدأ الثلج فجأة • سقط في البداية مثل قصاصات عشوائية متطايرة من الورق الأبيض ثم أصبح غزيرا وكثيفا وغلف العالم خارج الأتوبيس بستارة متحركة من نممة بيضاء بلا نهاية • برغم ذلك نزلت في محطة مكتب البريد • وضعت الكتاب تحت معطفي حتى لا يتل وجريت حتى المكتب ولكن في خطوات محسوبة لكي لا تنزلق قدمي في الثلج الناعم • وقبل أن أدخل المكتب توقفت لأنفض الثلج عن شعري وعن معطفي • اصطدم بي شخص من الخلف • التفت ، وكانت هي فتاة المحطة التقت قطراتنا لثوان وتمتنا في نفس الوقت بالاعتذار ثم تخطتني واندفعت الى المكتب • وقفت في طابور قصير أمام شباك تسجيل الرسائل الذي لم يفتح بعد • وعندما فتح الشباك رأيتهما تجلس خلفه بعد أن خلعت جاكتهما الصوفية • كان شعرها الأصفر مقصوصا حتى رقبتها ومفروقا في الوسط تتدلى منه خصلة مصففة بعرض الجبين ، وكان ذلك وطابع الحسن في خدها يعطيان وجهها المستدير الجميل شيئا من الطفولة • وجاء دوري فسلمتها الكتاب • وتطلعت لثوان بدهشة الى غلافه بزخرفته المذهبة ثم تجمدت ملامحها مرة أخرى على عادة أهل البلد حين يعملون • وضعت الكتاب على ميزان وقالت لي عن الثمن • لم تنظر في وجهي •

كان الثلج ما يزال غزيرا عندما خرجت • فرش الأرضفة
بالفعل وكسا أسقف السيارات الملونة التى كانت تسير ببطء
بنفساء موحّد رقيق • لم تكن معى مظلتى فوققت أحتى من
الثلج فى مدخل مكتب البريد • بدأت أقلق لأننى تأخرت عن
موعد العمل ولكن لم يكن هناك ما أستطيع عمله فى هذا
الجو • جاء عبر الطريق رجل يعدو ووقف الى جانبى وهو يلث
وراح ينفذ الثلج عن ثيابه ، وحين انتهى وضع يديه فى جيبي
معطفه وأخذ يزفر الهواء دخانا من فمه وأنفه • كانت السيارات
تمر أمامنا بطيئة ترسم اطاراتها شريطا أسود منقوشا وسط
الثلج فى أسفل الطريق ، فاندفع الرجل ورفع ابهامه لعدة
سيارات لكن أحدا لم ينظر اليه • رجع الى المدخل وقد تكوم
عليه ثلج جديد ثم نظر الى بشىء من الغضب وقال أنت أجنبى ،
أليس كذلك ؟ هزّزت رأسى فقال عندكم أوغاد بهذا الشكل ؟
لا يتوقعون حتى مع هذا الثلج ؟ قلت عندنا شمس • سألنى
وما الذى جاء بك الى هنا ؟ أشرت بأصبعى الى السماء
فضحك •

فى المكتب قال لى رئيسى الأجنبى وهو يلوح بيديه
« شوية •• شوية » ، وكان يعتقد أن هذا يعنى بالعربية أننى
جئت متأخرا • قلت ان هناك ظروفا تحدث • ولكنه كان سعيدا
لأنه تكلم بالعربية ولأننى فهمت • سألنى عن صحتى ، هل هى

جيدة ، فقلت نعم . وعندما قابلت فتحي سألتني ان كنت قد قرأت في الكتاب ، قلت لا . هز رأسه في حزن وقال خسارة ، روحك شفافة . ثم دفع سبابته في صدري وقال يمكن أن ينبت بستان في صدرك . قلت له ان صدري مثقل بما فيه الكفاية فقال في هذه التربة ينبت البستان . دفعت سبابتي في صدره وقلت يكفي بستان واحد في المكتب ، وانصرفت عنه .

في المساء عدت الى البيت .

كان الثلج على الرصيفين عاليا يمتد بساطا فاعما ولاعما على جانبي الطريق الأسود المغسول ، وكان يصنع من أغصان الأشجار العارية من الأوراق تعاين ييضاء متعرجة وينقط أوراق الأشجار القليلة التي تحتفظ بخضرتها بزهور منيرة . كان هناك الدفء الذي يعقب الثلج وسكون . في البيت لم أفتح التليفزيون . نظرت من النافذة وكان الثلج في كل مكان ، والمسيارات المحاذية للرصيف قبا بلا معالم . كان صمت وحزن فجلست أتأمل حالي .

عندما طلبني كمال في التليفون قلت له ان الثلج قد وصل فقال لي ان هناك ثلجا يغمر روحه . سألته عن السبب فقال انه اكتشف أنه مرت عليه عشر سنين وهو يعمل في بنوك هذه البلدة ، وقد تزوج واحدة من البلد طيبة وجميلة ، وحصل على

الجنسية فيها والناس تحسده لذلك ولكنه تعيس جدا * سألته مرة أخرى عن السبب فقال أليس عمل البنوك نوعا من الربا ؟ هناك شيء قلق في ضميري * قلت له ألا يهتم وأنتى أرسلت له الكتاب في البريد واذا كانت روحه شفافة فسينبت له بستان في صدره * ضحك وقال حرارتي مرتفعة لأننى تعرضت للبرد وأكلت زبدة بالثوم وأظن أن روحى الآن كثيفة * قلت له خذ حبة أسبرين ونم *

في الصباح لم أذهب الى العمل *

كان ذلك يوم السبت ، لكننى صحت في نفس الموعد كأيام العمل وأخذت وأنا في الفراش أرتب في ذهني الأشياء التي سأفعلها * سأشتري خبزا وأكلأ يكفيني بقية أيام الأسبوع * سأخذ ثيابي للمغسلة * في المساء سأذهب الى السينما * قبل ذلك سأكلم كمال في التلفون لأسأل عن صحته ولأقول له اننى لن أكون في البيت هذا المساء * وعندما استقر رأيى على ذلك نهضت من الفراش *

نظرت من النافذة وكان الثلج كما هو ، لكنه فقد بريقه * ووسط الرصيف كان هناك ممر موحل منقوش بآثار الأقدام يشق الثلج المتصلب ، وتحت الرصيف كانت أكوام أخرى من ثلج موحل كسحها الكناسون في الليل من وسط الطريق ،

وقدرت من طريقة لبس المارة القليلين ومشيتهم برؤوس محنية
وأيديهم في جيوب معافهم أن البرد شديد .

تدثرت جيدا قبل أن أنزل ولكنني كنت أعرف أنه لا علاج
لأهم شيء : الأنف والأذنين ، أحيانا أرفع الكوفية حتى أنفي
لكنني أشعر باختناق وأشعر أيضا بالبرد في رقبتى .
في الظروف العادية يفيد المشى السريع أو الجرى ، ولكن هذا
مستحيل مع وجود الثلج على الأرصفة . بالرغم من ذلك كان
لا بد من النزول ، ففوضت أمرى الى الله ومن قبيل الاحتياط
لبست جوربين ثقيلين . قررت أن أبدأ بالمغسلة فحملت ثيابى
في كيس ونزلت .

كانت تلك المغسلة محلا للخدمة الذاتية وفيها حوالى عشر
غسالات . تضع نقودك وثيابك وصابونك في الماكينة وتنتظر
الى أن تنتهى أو تنصرف ثم تعود في موعد الانتهاء . وفي المحل
موظفة واحدة تراقب سير الأمور وتبيع الصابون في أكواب
لمن ليس لديه . وعندما دخلت كانت كل الغسالات مشغولة
وهناك سيدة عجوز من أهل البلد تجلس منتظرة على كرسي
والى جوارها كيس ثيابها . جلست أيضا على مقعد خال أنتظر ،
ولكن تيارا خبيثا كان يتسرب من الفتحة الرفيعة بين ضلقتى
الباب الزجاجى فقممت وأخذت أتجول بين الغسالات . رحت
أنظر الى عيونها الزجاجية الدائرية محاولا أن أفهم من طريقة

خض الثياب ودرجة نفاقتها أيها أوشكت أن تفرغ • من مكاني
سمعت السيدة المعجوز تقول بصوت حاد سأخذ أول غسالة
تنتهي • لم أنظر إليها وواصلت تجولي بحثا عن الدفء •

دخلت لفحة من الهواء البارد ودخل معها رجلان افريقيان
يحمل أحدهما كيسا مملوءا بالثياب والآخر كيسا فارغا • كانا
يتكلمان لغتهما ويضحكان • توجهتا الى احدى الغسالات وكانت
قد توقفت عن العمل بالفعل فأدار أحدهما زراري التجفيف ووفقا
ينتظران •

مرة أخرى قالت السيدة المعجوز بصوتها الحاد المرتفع
سأخذ أول غسالة تنتهي • كانت نحيلة طويلة الرقبة ، لها عينان
ملوتان خاملتان ، حدقتاهما دائريتان رماديتان في جوف كل
منهما دائرة كستنائية صغيرة • وكان وجهها المعروق يلمع كأنه
مدهون بالزيت •

التفت اليها الأفريقي الذي يحمل الكيس الملآن وقال
لها بلهجة رقيقة حضرت هنا مع صديقي من قبلك يا مدام •
واتفقت مع الأنسة أن آخذ غسالة عندما ينتهي هو • قال هذا
وأشار للفتاة التي كانت تجلس الى منضدة صغيرة فهزت رأسها
تؤمن على ما قال •

وقفت السيدة وتحركت نحو الفتاة وقد اتسعت عيناها
واحتقن وجهها وقالت ما معنى هذا ؟ أنتظر كل هذا الوقت ثم
يأتى من يأخذ دورى ، وزنجى أيضا ؟

احمرت عينا الافريقى وتقدم منها خطوة وهو يقول
بصوت خفيض :

— ماذا تقصدين بذلك ؟

تراجعت خطوة وقالت — فى هذا البلد نحن نحترم
النظام ، لسنأ كالبلاد التى ...

قاطعها وهو ما يزال يقترب منها — لا يعينى نظامك
ولا بلدك ، ماذا قلت ؟

تراجعت خطوة أخرى وهى تقول — ماذا قلت ؟ ألسـت
بالفعل زنجيا ؟

قال وقد أصبح وجهه فى وجهها — نعم وأنا فخور بذلك
فقولى ماذا تقصدين ؟ قالت لك الآنسة اننى جئت قبلك فما دخل
زنجيتى بذلك ؟ قولى ماذا تقصدين ؟

جلست مكانها فجأة وقالت بصوت يكاد لا يسمع —
لا شىء .

فجأة مال الافريقى بجذعه الى الخلف وأخذ يقهقه وهو

يقول — اذن فانت لا ينقصك الأدب وحده ولكن الشجاعة
أيضا • الأدب والشجاعة ...

جذبه صديقه من يده وهو ما يزال يقهقه وأخذ مرة أخرى
يتكلمان ويضحكان ، فانهجرت المعجوز بكلمة لا أحد •

— وعلى العموم فأنا لا أحب أن أستعمل هذه الفسالة ؟
قال الافريقى الذى كان يجمع ثيابه من الفسالة ويضعها في
كيسه متظاهرا أنه يبكى — يا للأسف ... سأحزن جدا لذلك •
نظرت السيدة الفتاة التى تجلس خلف المنضدة وقالت
لها — أرايت ؟

قالت الفتاة وهى تتطلع للسقف — لا شأن لى بذلك •

التفتت المعجوز تبحث عن شخص آخر تكلمه لكنها لم تجد
سواى فأدارت وجهها نحو الباب الزجاجى وهى تتمتم وتهز
رأسها — ماذا جرى لهذا البلد ؟ ماذا جرى لهذا البلد ؟

بعد أن انتهت من غسل ثيابى ، خرجت متجها الى المتجر
لأشتري أشياء الأسبوع • كان وجهى ملتها عندما خرجت من
المسلة ، ومضت مدة قبل أن أشعر بالبرد وأضطر الى ربط
الكوفية حول أنفى •

وفى المتجر بينما كنت أجمع علب الصلصة والشاى والسكر

قابلت فتاة مكتب البريد • كانت تدفع أمامها عربة فيها باقة ورد
وعلب صابون وخضراوات • ولما التقينا تطلعت الى وعلى فيها
إبتسامة مترددة ، فأدبرت وجهي •

في البيت طلبت كمال في التليفون • سألته عن صحته فقال
ان الحرارة هبطت ولكنه مازال يشعر بدوار • سألته ان كان
الكتاب قد وصله فقال انه تسلمه الآن وسيعيده الى بعد ان
يقرأه • قلت له اننى لا أحتاج الى الكتاب ولا الى أى أرواح
طيبة أو شريرة ويكفى أشرار البشر • حكيت له ما دار في
المسئلة ، وكنت منفعلا بعض الشيء لكنه رد بهدوء وقال
ما أهمية ذلك ؟ أنا أعيش هنا من سنين وأعرف كيف ينظر أهل
البلد الى الأجانب لكننى لا أهتم بذلك أبدا • أعتبر اننى
أعيش في صحراء وأن شقتى خيمة • خارج العمل لا أتعامل مع
أحد أبدا ولا أعتبر أن هناك بشرا • هذا هو الحل المثالى
معيهم وليست هذه هى المشكلة • قلت له اذن ما هى المشكلة ؟
فقال نحن • المشكلة فى داخلنا لكنى لا أعرفها • أبحث عنها طول
الوقت لكنى لا أعرفها • هل تعرف فى تفسير الأحلام ؟ قلت
أجرب • قال بالأمس حلمت اننى قابلت معاوية بن أبى سفيان
واننى كنت أتوسط عنده للصلح مع سيدنا الحسين فغضب
معاوية وقال ضعوه فى السجن مع طه حسين ، لكننى استطعت
أن أهرب وركبت تاكسى فوجدت نفسى فى ميدان العتبة • قلت
لكمال ان الخلاف كان مع زيد وليس مع معاوية • فقال لى

بشيء من الغضب هو حلم أم حصة تاريخ ؟ ماذا تفهم منه ؟
فكرت لكننى لم أفهم شيئا . قلت له ماذا كنت تفعل قبل الحلم ؟
قال كنت أتمرّن على الآلة الكاتبة الأفرنجية . قلت هل يلزم
هذا لعملك ؟ قال لا ، ولكنه شيء مفيد . قلت له اننى لا أستطيع
أن أفسر الحلم فقال لا يهم ، هل عندك أخبار ؟ قلت لا .
فى المساء ذهبت الى السينما . كان الفيلم لاترافياتا .
وقفت فى المدخل أنتظر خروج الحفلة وأحتمى بدفء الزحام .
كنت اتفرّج على صور الفيلم ، أرى كيف تصور المخرج
غادة الكاميليا . وكانت كما أحلم بها نحيلة ، جميلة ، ذات
عينين سوداوين واسعتين . سمعت صوتا من خلفى هل تسمح ؟
التفت وكانت هى مرة أخرى بطابع الحسن فى خدها . كانت
تمسك سيجارة وتقربها من فمها وقالت هل تسمح أن تشعل
لوى السيجارة ، كانت تلبس بلوزة بيضاء من الصوف الثقيل
عالية الرقبة وبنطلونا وبدا وجهها الخالى من المساحيق متوردا
جدا ومرتبكا . كانت طفلة أكثر من أى وقت وبدا لى غريبا
أنها تمسك سيجارة . ابتسمت لها وأنا أخرج الولاة فقالت
يبدو أننا نلتقى فى كل مكان . قلت المدينة صغيرة . قالت اسمى
آن مبرى . قلت لها عن اسمى ، ابتسمت وهى تحرك السيجارة
بين أصابعها بسرعة . وقالت قررت أن أواجهك . قلت لها
بدھشة هل نحن فى حرب ؟ فقالت لا ، لا تهتم . هل ستدخل
الفيلم ؟ قلت نعم . قالت تحب لاترافياتا ؟ قلت اعتدت أن

أسمعها في أوبرا القاهرة • سألت في القاهرة أوبرا ؟ قلت كان •
استمرت تحرك السيجارة بين أصابعها في عصبية ثم قالت هل
لديك مانع أن تتكلم قليلا بعد الفيلم ؟ قلت سأكون هنا •

بعد الفيلم كانت موسيقى فيردى تملأنى وذلك الحزن
الرفيق الذى عرفته من أول مرة قرأت فيها غادة الكاميليا والذى
يعاودنى كلما شاهدت قصتها • وكانت مع أن مارى احدى
صديقاتها عندما خرجت من الفيلم • عرفتني بها فتطلعت الى
بفضول ثم صافحتني وانصرفت • سرنا في الطريق البارد الذى
كاد يصبح خاليا بعد أن تفرق الخارجون من الفيلم • وكانت
غادة الكاميليا لا تزال تملأنى •

قالت تبدو حزيننا •

قلت نعم •

فقالت وأنا أيضا • تذكرت بيتا من الشعر يقوله هاملت
عن الممثل الذى ييكى على مأساة بطلته ، من تكون له ومن
يكون لها حتى ييكى عليها ؟ ثم راحت تهز رأسها وتقول : من
تكون غادة الكاميليا لنا ومن تكون لها حتى نحزن عليها كل
هذا الحزن ؟

قلت - أكثر حقيقة من الناس الحقيقيين •

وغلبنى البرد فسألتها - هل تقصدين مكانا محددا ؟

قالت - لا •

فجلسنا فى أقرب مقهى •

كنا نجلس متقابلين الى منضدة صغيرة وأمامنا كوب
الشاي الساخن فقلت لها وأنا أبتسم - ها أنت تواجهيننى ،
فما هى المسألة ؟

ابتسمت هى أيضا وقالت - كان الأمر يحتاج الى شيء
من الشجاعة هذا كل شيء • لم أعود أن أتكلم الى الأجانب •
ثم أضافت بسرعة أقصد الأشخاص الذين لا أعرفهم •

ضحكت ضحكة صغيرة وقلت - أنا لست خجلا لأنى
أجنبى •

فانحنيت على كوب الشاي وقد احمر وجهها وقالت -
بالطبع • بالطبع • ولماذا تخجل ؟ ثم رفعت رأسها وفطرت
الى وازداد وجهها احمرارا وهى تقول - أرجوك ألا تسمى
فهمى • كان أبى قسا بروتستانتيا وقد علمنا أن نحب المسيح
وأن نحب كل الناس فى المسيح • أنا • أنا لست كالأخرين •

قلت - هذا واضح • ولكن ألا تهتئين قليلا لأن هؤلاء

الزبائن يراقبونك وأنت تجلسين مع رجل أجنبي ، ورجل ملون
أيضا ؟

قالت وهي ما تزال تثبت عينيها الزرقاوين في وجهي :
— مطلقا • ثم أضافت بصوت خافت — وهذا ما يحيرني •
— ما هو ؟

— شيء يحدث • لا أستطيع أن أصفه • ربما تستطيع أن
تساعدني •

سكت وبدأت أرشف الشاي منتظرا أن تواصل الحديث
ولكنها توقفت عن الكلام أيضا وبدأت تشرب الشاي في صمت
وهي تثبت نظرتها في المنضدة التي تفصل بيننا •

ثم قالت فجأة بصوت خفيض وكأنها تبذل جهدا للكلام —
أرجوك أن شئت أن تحدثني عن نفسك • من أنت ؟ من أين ؟
ألا كما ترى من هذا البلد • أعمل في مكتب البريد • مات أبي
وأعيش مع أمي • أحب السينما وأحب الموسيقى والقراءة •
فمن أنت ؟ ماذا تعمل هنا ؟

قلت لها من أنا وماذا أعمل هنا •

قالت — وذلك الكتاب الذي أرسلته من عندي بالبريد •
ذلك الكتاب ذو الغلاف المزخرف ، ما هو ؟

— كتاب عن الصوفية • صعب أن أشرح لك • أناش
يعتقدون أن القلب هو الذى يفهم لا العقل • يمرنون أرواحهم
لكى تصفو قلوبهم •

— مثل الزهبان ؟

— ليس تماما • ولكنى فى الواقع لا أستطيع أن أشرح •

لم أقرأ كتبهم ولا أفهمهم كثيرا •

— وأنت ما هى أفكارك ؟

سكت •

استأنفت هى الكلام وقالت — فى وقت من الأوقات تمنيت
أن أعتنق الكاثوليكية وأن أصبح راهبة • أحببت أيضا القديس
فرانسوا الأسيسى الذى كان يحب الفقراء والمرضى • فى الواقع
أنى احتفظ بصورته فى غرفتى رغم أن أمى لا تحب ذلك •

ثم رجعت للخلف فجأة وقالت — هذا العالم يمرضنى •
لا فائدة ، حاول ناس كثيرون ولكن لا فائدة • نفس الغباء فى
كل العصور • نفس الكراهية ونفس الكذب ونفس التعاسة •
فكرت أيضا أن أذهب الى افريقيا ، ربما أساعد انسانا واحدا ،
فكرت ••

توقفت فجأة عن الكلام .

ظفرت حبات من العرق في جبينها ، فمسحتها بيدها
ووضعت يدها على عينيها وقالت وهي مغمضة العينين - معذرة .
أشعر أنى ضايقتك . رأيت وجهك يتغير عندما سألتك ما هي
أفكارك فأرجوك أن تسامحني ، لا أريد أن أتطفل عليك .

قلت - لا أهمية لذلك . في الواقع كانت عندي أفكار
أن ماري . قلت لها عن اسمي . ابتسمت وهي تحرك السيجارة
بين أصابعها ، بسرعة وقالت قررت أن أواجهك . قلت لها
فيما مضى ، لكنني الآن نسيتهما . في بلدي لم يكن أحد يحتاج
اليها ولا الى فقررت أن أنساها . نسيته أشياء كثيرة . ولكنك
قلت انني يمكن أن أساعدك ، كيف يمكن أن أساعدك ؟ وقلت
لي شيئا عنى يصيرك ، ما هو ؟ رفعت يدها من على عينيها وظلت
تنظر الى فترة ورموشها تختلج ثم قالت باللهجة عادية . هذا
الشيء هو أنى أراك كثيرا جدا . في كل يوم تقريبا مرة
أو مرتين . قلت لها - وما الغريب في ذلك ؟ ما الغريب اذا كنا
نسكن في نفس الحي ونركب نفس الأتوبيس في نفس الموعد ؟

قالت باللهجة المادية ذاتها - لا شيء . غير أنني أراك أيضا
عندما لا أراك . أشعر قبل أن أقابلك بأفك موجود وعندما

أرفع عيني أجلك هناك • أحيانا أتخيل هذا فحسب ولا تكون
هناك ولكنى أكاد ألمسك •

قلت وأنا أحاول أن ابتسم — ربما كنت تحبينى ؟

فقلت دون أن تبتسم — لا •

ثم حولت عينيها وقالت — سامحنى • فى الواقع انى
أكرهك •

ثم نظرت الى • كان وجهها محتقنا ، وعيناها محمرتين وقد
غادر ملامحها كل جمال •

تطلعت الى عينيها • وكانت بالفعل تكرهنى •



(٢)

في الأسبوع التالي أيضا ذهبت الى العمل وعدت الى البيت .

هبط ثلج جديد واشتد البرد .

ذهبت مرة الى فتحى في مكتبه وقلت له هذه الحياة تحيرنى فأرجوك أن تعلمنى شيئا . قال كيف أعلمك وأنا لا أعلم ؟ افعل مثلى . دع روحك تتفتح . يوما ستكتشف أنت وسأكتشف أنا خلف هذه الصحراء تلك الأزهار الموعودة التى لا حد لجمالها .

قلت له هذا الكلام يخيفنى ولا يعزىنى . أريد شيئا محددا . كيف وصلت أنت الى هذا التوازن والسلام ؟ قال ألفت ارادتى وسلمتها لصاحب الأمر . ولم يكن ممكنا أن نواصل الحديث .

كلمتى كمال فى التليفون عدة مرات . لم يذكر شيئا عن الكتاب لكنه قال لى ذات مرة . انه قرر أن يستقيل من البنك . وفى هذه الفترة كثرت الأحلام عند كمال . كان هناك شيء يتكرر بكثرة فى أحلامه : انه يتعلم عزف الكمان . فى أحد الأحلام ضاع منه القوس الذى يعزف به واضطر أن يستخدم

مسطرة ليواصل العزف • وفي حلم آخر كانت هناك لجنة
مشتتة ولكن زجاجة الدواء الذي يساعد على العزف انكسرت
وكانت جميع الصيدليات مغلقة فأراد أن يعتذر للجنة ولكنه لم
يجد الحذاء فدفعوه الى المسرح دون حذاء ، وهكذا •

وفي نهاية الأسبوع دعتنى آن ماري الى بيتها لترد لى
دعوة الشاى كما قالت • كنا قد التقينا فى الصباح عدة مرات
على محطة الأتوبيس وتبادلنا الحديث • طلبت منى أن أغفر
لها صراحتها فى ذلك اليوم • طلبت أن أقظر للمسألة على أنها
تعانى من أزمة نفسية لا علاقة لها بى • والواقع أنها كانت
تحب واحدا من مواطنيها ولكنه تركها منذ شهر • سافر الى
الخارج بعد أن كافا قد اتفقا على الزواج ومن هناك بعث اليها
اعتذارا • قالت انه كان يمكن ألا يعدها بالزواج وأنها كانت
ستجه وتبقى معه برغم ذلك • ولكن أن يعد وعدا لم يرغبه
عليه أحد ثم ينكثه فهذا فى الواقع هو ما يمرضها • وهى تكاد
تكون سعيدة لأنها تخلصت من شخص بهذه الأخلاق فى الوقت
المناسب • ثم تكلمت عنى • قالت انها تحاول أن تنظر للمسألة
بمنتهى الموضوعية • كأنها لا تتكلم عنى أو عنها ولكن عن
بشر آخرين ، وترجو أن أسامحها • هل تكرهنى لأنها رأتنى
فى هذه الظروف ؟ هل أذكرها بذلك الشخص الآخر الذى
أصبحت الآن تكرهه ؟ ولماذا ؟ هل لأن فى شيتا يشبهه ؟

ما هو ؟ هل لأنه سافر للخارج مثلا ؟ هي تعرف أن المسألة معقدة جدا وستفهم تماما اذا رفضت أن أساعدها بل وستعترض لى وتشكرنى لأنتى وافقت أن أستمع اليها . أما ان شئت أن أساعدها فسيكون هذا كرما بالغا منى وستقدر لى هذا الجيل .

فى نهاية الأسبوع التقينا على محطة الأنويس . كانت سحب داكنة تغطى السماء وتجعل النهار معتما وكان الثلج راكدا على الأرصفة وشرفات البيوت . وجاءت آن مارى فى الموعد ترقدى كالعادة بنطلونا وجاكتة بيضاء من الصوف تضع يديها فى جيبيها ، وتربط كوفية حول رقبته . لم أرها أيدا تلبس معطفا أو فستانا . وبدأت وهى تتقدم منى بخطوتها المترددة نحيلة وضئيلة وشعرت نحوها بأشفاق غريب .

قادتنى الى بيتها . كانت تسكن عمارة قديمة ذات شرفات من حديد مقوس مشغول . كثيرا ما مررت أمامها فى الصيف ووقفت أكأمل شرفاتها الرقيقة وهى موشاة بزرع أخضر وزهور حمراء كبيرة . الآن كانت الشرفات عارية وقد تكومت فقط من الثلج على الأجزاء المحدبة من قضبان الحديد المقوس المتوازية .

لم نكد نقول شيئا حتى وصلنا الى شقتها ، ولكنها ونحن

نصعد السلم غمغمت باعتذار لأنه ليس هناك مصعد وهى تسكن
فى الدور الثالث + فتحت الباب بفتحها وفى مدخل الشقة كانت
هناك ستارة بيضاء ، عبرناها فدخلنا الى صالة فيها مناضد صغيرة
تعلوها دمنى وتماثيل خشبية صغيرة على مفارش بيضاء
مطرزة + كانت المفارش فاصدة البياض والمناضد الصغيرة
والتماثيل التى تعلوها موضوعة فى أبعاد متناسقة تماما وسط
زهور عفية ومعتنى بها + كانت زهور قرنفل كبيرة بيضاء
وحمرات ووردية + وعلى جانبى الصالة كان هناك دولابان
خشبيان بصلف زجاجية لها ستائر من الدايتيلا ، ويزدهمان
بالكتب + ووسط الدولابين بالضبط مائدة خشبية مستطيلة
تجلس إليها سيدة ذات شعر أبيض معقوص تلبس نظارة كبيرة
العدسات وتقرأ مجلة + قالت آن مارى هذه أمى ، ثم تقدمت
منها وقبلتها فى جبينها وقالت بصوت عال هذا هو + هزت
رأسها وابتسمت وقالت صباح الخير يا سيدى + فقلت صباح
الخير + قالت آن مارى ارفع صوتك انها لا تسمع جيدا +
جلست على كرسي بجوارها وظللت ساكنا بينما كانت هى تحنى
رأسها وتتطلع الى مبتسمة بعينها الزرقاوين الصافيتين اللتين
ورثتهما آن مارى + تطلعت الى طويلا من خلف العدستين
الكبيرتين المنزلقين على أنفها ، ثم قالت من افريقيا ؟ هزت
رأسى فأشارت بيدها الى قناعين سوداوين مرشوقين فى الجائط
يتوسطهما صليب خشبى وقالت أحب النحت الافريقى + ضمت

أصابعها البيضاء المتفضضة وأخذت تمزق قبضتها وهي تقول فيه
 القوة ، ثم فتحت راحتها وحركت يدها حركة متموجة وقالت
 وفيه أيضا رشاقة ونعومة . ثم قالت من أين في افريقيا ؟ قلت
 بصوت مرتفع أنا من مصر . رفعت حاجبيها مندهشة قليلا وقالت
 مصر ؟ تمنيت دائما أن أزورها . ذهب زوجي الى مصر سنة ...
 في سنة ، لا أذكر . لم تكن قد تزوجنا بعد ولكني مازلت
 محتفظة بالصور . اعتمدت يديها على المائدة وهمت بالنهوض
 ولكنها توقفت لحظة ولكني أذكر أن زوجي قال لي انهم في
 مصر يجيدون السحر . قلت بدهشة السحر ؟ فهزت رأسها ،
 قلت وأنا أحاول أن أضحك ، ربما كان ذلك أيام سيدنا موسى .
 فقالت وهي ما تزال تعتمد يديها على المائدة شاهد زوجي
 أشياء ، فقلت ربما . نهضت من مكانها بصعوبة وفي هذه
 اللحظة عادت أن ماري تحمل ثلاثة أكواب من الشاي على
 صينية وقالت بصوت مرتفع يكفي هذا يا ماما . فقالت أمها
 بنوع من الاحتجاج ولكنني أريد أن يرى هذا السيد الصور .
 وسارت ببطء محنية الظهر الى أحد الدواليب وفتحته . قالت
 أن ماري باعتذار وهي تضع أكواب الشاي على المائدة انها
 لا تخرج كثيرا وعندما ترى أحدا لا تكف عن الكلام . فقلت
 لا يضايقني هذا . وكانت أمها الآن تكلم نفسها وتقول أين
 ذهب ؟ أين يمكن أن يكون قد ذهب ؟ كان دائما هنا .
 حملت أن ماري كوب الشاي الموضوع في حامل معدني

وقالت تعال • لنذهب الى غرفتي • فحصلت كوبي وتبعتها •

كانت غرفتها صغيرة ومرتبّة ، أثاثها حديث وبسيط على عكس الصالة وتشغل الحائط أرفف عليها كتب كثيرة • وكانت تتوسط أحد الأرفف زهرية طويلة من الكريستال فيها زهرة واحدة بيضاء كبيرة • وعلى الحائط كانت صور القديس فرانسوا برأسه الحليق في الوسط • وكان اللون الأبيض في كل مكان ، المفارش وغطاء السرير وستائر النافذة الداتيل • وحين فتحت آن ماري ستارة النافذة ظهرت في الخارج شجرة أرز تكوم الثلج على غصونها العريضة الخضراء التي تشبه كهوفا مبسوطة ، ومن حولها أشجار تتشابك غصونها العارية المطلية بالجليد • جلست آن ماري على كرسي صغير بجانب النافذة ووضعت راحتيها بين ركبتيها المضمومتين وأخذت تتطلع للخارج •

قلت لها وكنت ما أزال واقفا عند باب الغرفة وكوب الشاي في يدي ، المنظر جميل من نافذتك • تطلعت الى مبتسمة وقالت شكرا ، لم لا تجلس ؟ وأشارت الى مقعد مستدير بدون مسند أمام مرآة صغيرة ، جلست تكاد ركبتي تصطدم بركبتها ورحنا تتطلع من النافذة ونحن نرشف الشاي •

قالت دون أن تنظر في وجهي بالأمس حملت بك •

وقالت تعال • لنذهب الى غرفتي •

قلت أنا آسف ، ثم ضحكت •

قالت وهي تسدد الى نظرة ثابتة لماذا أنت آسف
ولماذا تضحكك ؟

— ما الذى يمكن أن أقوله عندما تخبريننى بهذه اللهجة
الحزينة أنك بالأس حلمت بى ؟

هزت رأسها وقالت أول أمس أيضا حلمت بك •
حلمت صقرا كبيرا يضرب نافذتى بجناحيه ويتطلع الى بفضب
وهو ينقر الزجاج محاولا أن ينفذ منه ثم جئت أنت فاخترضتك
الصقر بجناحيه • صحت من النوم وكنت أبكى •

لم أضحك ونكست رأسى •

قالت بهدوء — ماذا تفعل لكى يحدث هذا ؟

رفعت رأسى بدهشة وأنا أكرر السؤال ماذا أفعل لكى
يحدث هذا ؟

— نعم •

— أنت تعين هذا السؤال ؟ تعتقدين أننى يمكن أن أفعل
شيئا يجعلك تحلمين بى ؟

ضحكت آن مارى بمصيبة ومدت يدها الى فأخذت كوب
الشاي الفارغ ثم قامت وخرجت •

خارج النافذة حط غراب على شجرة الأرز •

أخذ يطير متخبطا بين النصوص وهو يبحث عن غصن
لا يضره الثلج ، وحين وجده فرد جناحي حداده الأبدى وراح
ينفضهما ثم انكمش •

رجعت آن ماري وأغلقت باب الغرفة وقت بجانبى ثم
قالت فيم تفكر ؟

— لو قلت لك ستضحكين •

— اذن أرجوك قل • أتمنى أن أضحك •

— يحزنتى أن هذا الغراب على تلك الشجرة تيمس •
ويحزنتى أن يكره الناس في العالم كله الغراب مع أتى لم أسمع
أنه آذى انسانا •

— تحزن للغراب وتحزن لغادة الكاميليا • ألا تهتم بأمرا
نعن البشر من لحم ودم ؟

— كفتت عن ذلك منذ زمن •

— أما أنا فيحزنتى أن تنهزم في هذا العالم الرقة
والحساسية وأن ينتصر الشر • يحزنتى أن تموت غادة الكاميليا
لأنها أحبت وضحت ولكن يحزنتى أيضا أن أعلم أن في هذه
الدنيا جوعى فقراء لا يجدون طعاما ومرضى فقراء لا يجدون

دواء ، أو اذا وجدوا الدواء فان الموت يخطفهم دون مبرر •
يحزننى الموت بصفة خاصة •

— وكل ذلك كان يحزننى ذات يوم وغيره كثير ••

— ومتى فقدت اهتمامك بهذا كله ؟

— لا أذكر بالضبط • ربما منذ جئت الى هنا • ربما قبل
ذلك بقليل وعندما قررت أن آتى هنا •

— واذن فأنت الآن بهم تبشر ، بالفناء ، بالعدم ؟

— ولا حتى بهذا •

ظلت تتطلع فترة من النافذة فى صمت ، ثم قالت بلهجة
مختلفة وهى تشير الى شجرة الأرز •

— أظن هذه الشجرة فى بلدكم ؟

فقلت — لا ، ولكن فى ناحيتنا •

قالت — بعد اذنك • يتعبنى نور النهار الكابى الذى
يشبه الليل • أفضل الكهرباء •

ثم أسدلت الستار فأصبحت الغرفة شبه معتمة ، لكنها
ظلت تقف بجانبى ووجهها الى النافذة ثم قالت بصوت خافت •

— هل أنت واثق من أنك لا تستطيع مساعدتى ؟

مددت يدي وأمسكت يدها القريبة مني • كانت باردة
كالثلج فأخذتها بين راحتي • انحنيت وركعت على ركبتيهما بحيث
أصبحت تواجهني وقالت بصوت خافت - من أنت ؟ وما معنى
هذه الأحلام ؟ ولماذا تلازمني ؟

قلت : من أنت ولماذا ظهرت في حياتي وماذا تريدني
منى ؟

اقتربت منى وهى تزحف على ركبتيهما ثم قبلتنى فى جبينى •
كانت شفتها باردة كالثلج فأمسكتها من كتفها وقلت لیتنى
أستطيع أن أساعدك • لیتنى أستطيع أن أساعد نفسى •

ولكنها فجأة وبحركة سريعة جدا وهى ما تزال راكعة
أمامى خلعت بلوزتها الصوفية وخلعت حمالة صدرها ودفعت
نفسها فى صدرى وهى تحيطنى بذراعى متشنجتين وقالت -
هيا ، ان كان هذا هو ما تريد فيها • ها هو السرير •

أبعدت ذراعيها عنى بقوة وخرج صوتى مختنقا وأنا
أقول ، لا ، ليس هذا هو ما أريد ربما تكونين جميلة • أنت
بالفعل جميلة ، ولكنى لم أرك أبدا أكثر من طفلة •

ثم قمت والتقطت بلوزتها الساقطة على الأرض
وأعطيتها لها •

تناولتها من يدي وقامت فجلست على طرف السرير ثم

كومتها وأخفت فيها وجهها وأخذت تبكي بعنف وجسمها كله
يرتمش وهي تردد - اذن قل لى • قل لى أرجوك ماذا تريد ؟
ماذا تريد ؟

- ما أريد مستحيل •

ما هو ؟

- أن يكون العالم غير ما هو • والناس غير ما هم • قلت
لك ليست عندى أفكار ولكن عندى أحلام مستحيلة •

- وما شأنى أنا بذلك ؟ لماذا أتعذب أنا ؟

- وكيف أفهم أنا ؟ ما الذى أستطيعه ؟ قولى لى
وسأفعله أتحيين أن أترك هذا الحى ؟ هذه البلدة ؟

- هل سيساعدنى ذلك •

- وكيف أعرف ؟ ان كنت لا أفهم كيف أساعد نفسى ،
فمن أين لى أن أفهم كيف أساعدك ؟

مدت ذراعيها تبحث عن أكمام بلوزتها ثم لبستها ببطء
وغلت لفترة تجلس على طرف السرير صامتة متهدلة الكتفين
ثم قالت بصوت خفيض - الآن فهمت كل شيء • نعم الآن
أرى كل شيء ، ولكن ما أشد هذا الحزن •

- ماذا فهمت ؟

قالت بنفس الصوت الخفيض - هذا سرى •

ثم مدت يدها وهي ما تزال جالسة وضغطت زرا بجانب
السري فأضاء الغرفة نور كالمفاجأة •

تطلعت الى وقالت - أرجوك أن تسامحني •

ثم حاولت أن تبتسم وهي تقول - في كل مرة أقابلك
أضطر أن أعتذر لك • ولكن أعذك أن هذا لن يحدث
بعد الآن •

كانت عيناها محقتتين ولكن وجهها كان شاحبا جدا •

وعندما خرجنا من الغرفة كانت أمها تجلس في مكانها الى
المائدة وهي تقلب في البوم سميكة الأوراق ولما رأتني قالت
بلهفة تعال يا سيد ، وجدت الصور •

توجهت نحوها • كانت صورا قديمة • تلك الصور
المائية التي يبدو فيها الداكن بنيا والفاتح رماديا • كانت
لمعبد الكرنك والدير البحري والاهرامات ولكنها أشارت الى
واحدة فيها رجل يجلس على سنام جبل يترك على الأرض أمام
الهرم • كان الرجل مستدير الوجه يلبس سترة داكنة وياقة
بيضاء وكان يبتسم • وأمامه يقف ممسكا بمقود الجمل رجل
يلبس جلبابا يبدو ذراعاه النحيل من كم جلبابه الواسع •

نظمت اليه والى شاربته الذى يعلو فيه الواسع • الى وجهه
المقطب الحزين • كان يشبه أبى •

قلت للعجوز - هل آخذ هذه الصورة ؟

رفعت رأسها الى وقالت وهى تثبت نظرتها فى وجهى دون
أن تبسم •

- أنا أفهمك • أفهمك تماما •

ثم أغلقت الألبوم فجأة وقالت - معذرة • لا يمكن أن
تأخذ هذه الصورة •

وكانت آن مارى تقف هناك ، شاردة ، لا تتابع حديثنا ،
تمتد يدها الى المائدة •

(٣)

في الأسبوع الثالث ذاب الثلج ولكن بقيت بعض أكوام
منه كالرمل بحذاء الرصيف • وظلت الغيوم في السماء وظل نور
النهار ضعيفا •

وفي هذا الأسبوع قال لى فتحنى بقلق اتنى أزداد نحولا
يوما بعد يوم وأننى يجب أن أرى طبيبا • قلت له انه يستطيع
أن يساعدنى أفضل من أى طبيب لو شرح لى كيف أفهم هذه
الدنيا • قال لى طبيبك أنت ولكن لا تقاوم • قلت له ليس
هذا هو الكلام الذى يساعدنى، فهز رأسه فى حزن •

استدعانى رئيسى فى العمل أيضا وقال لى نفس الشيء •
قال ان صحتى « بسيطة تمام » ، وانه يمانع فى اعطاء الاجازات
هذه الأيام بسبب ضغط العمل ، ولكنه لن يرفض اذا طلبت
لأنه لا يريد أن يفرط فى • شكرته وقلت له اتنى لا أحتاج
الى اجازة •

اتصل بى كمال مرة فى منتصف الأسبوع وقال انه يطلبنى
كثيرا ولا يجدنى فأين أذهب فى المساء • قلت أخرج وأمشى •
قال فى هذا البرد • قلت نعم •

لم تظهر آن مارى على محطة الأنوبيس فى أى صباح •

ذهبت مرة الى مكتب البريد قبل أن أتوجه الى العمل ،
ولكنها لم تكن هناك أيضا •

وحلمت بها ذات ليلة وكانت في الحلم طويلة الشعر تجرى
على شاطئ بحر وهي خائفة وكان شيئا يطاردنها • وعندما
استيقظت كان العرق يغمري وكنت أشعر بشيء من الخوف •

قرب نهاية الأسبوع اتصل بي كمال في التليفون وكان
منفصلا • قال انه فعلها • انه فعلها أخيرا واستراح • قال انه
كان يعتقد أن كل ما يشكو منه الصداق ، الأرق ، الكوابيس ،
نوبات البكاء كلها ترجع الى موجات الكهرباء ولكنه كان
مخطئا • سألته أية كهرباء ، فقال ألا تعرف انه في هذا البلد
توجد أعاصير كهربائية في أيام معينة تؤثر على المخ ؟ قلت له
اننى لم أسمع بذلك ، فقال هذه حقيقة معروفة ألا ترى أن كل
الناس يتصرفون تصرفات غريبة ؟ قلت له اننى مندهش لأننى
أراهم مع ذلك أذكاء في تدبير أمورهم ، ناجحين في أعمالهم ،
أثرياء وصحتهم جيدة • فهل تصيب هذه الكهرباء أجزاء معينة
من المخ وتترك أجزاء أخرى ؟ هل تصيب أفاسا وتترك آخرين ؟
قال لى كمال وهو ما يزال منفصلا أنت تنظر الى الأمور من
السطح ، كل هذه الأشياء لعب من الكرتون • البيوت العالية
والمصانع الهائلة والطائرات السريعة والمقابر ذات التماثيل
والزهور • كل هذه لعب من الكرتون لا تخدم سوى الأطفال •

أنظر الى الداخل ولن تجد سوى خرائب • أنظر لمن يكلمون
أنفسهم في الطرقات • لمن يجلسون في المقاهي يحدقون بنظرات
كعيون الأسماك الميتة • أنظر لهذه الوحدة والجنون والكراهية •
ما الذى يرغمننا على ذلك ؟ هذا الكون رحب ورائع لكننا ندفن
أنفسنا فى جلودنا ، تعمى عيوننا عن النعيم الحقيقى والفرح
الحقيقى ، فلماذا لا أفتح عيني • لماذا لا أفعل مثله • لماذا
لا أقرأ الكتاب ؟

سألته ماذا سيفعل الآن فقال انه استقال من البنك وانه
ينوى أن يعود الى مصر وينصحني أل أعود معه • بنى بيتا فى
مكان ما فى الصحراء • خلفنا الضلأ وأماننا البحر وفوقنا
السماء • نعيش بعيدا عن التكالب وعن الزحام وعن شجار
الأطفال الديويين الذين لم يعرفوا نضج العقل المجرب ولا براءة
العمر البكر • نعيش ما بقى من عمرنا فرحة حقيقية فى ذلك
النعيم السماوى •

شكرته وقلت له اننى أتمنى له السعادة التى تريدها
واننى سأفكر •

لم أتم جيدا فى تلك الليلة وفكرت كثيرا فى آن مارى •
فى الصباح نزلت مبكرا قبل موعد العمل وتوجهت الى

بيتها . كان الصبح قد بدأ لكن الشوارع كانت دامسة وأنوار الطريق ما تزال مضاءة .

رتبت كيف سأعذر لذهابي في هذا الموعد المبكر : بحثت في مكتب البريد ولم أستطع الاهتداء الى رقم التليفون في الدليل فبحثت لمجرد أن أطمئن عليها . ولم أكن أعرف ان كان هذا السلوك يعد خارجا أم مقبولا في نظر أهل البلدة .

ضربت الجرس مرة . لم يرد أحد .

هل يحتمل أن تكون قد خرجت في مثل هذا الوقت المبكر ؟ سافرت مع أمها بعيدا ؟ ما الذي يمكن أن يكون قد حدث ؟

خرج رجل من شقة مجاورة يحمل في يده حقيبة . تطلع الى بفضل ثم أدار المفتاح في باب الشقة وتوجه الى السلم ، لكنه لما رأى أضغط الجرس مرة أخرى استدار وعاد الى : قال - أعتقد أن أحدا لن يفتح لك . منذ ماتت الأنسة والمدام مريضة ..

الآنسة ؟ من ؟ كيف ؟

قال الرجل - ألا تعرف ؟ ربما كان يجب ألا أقول لك ، ولكن ما دمت ستقابل المدام فربما يحسن ..

قلت مرة أخرى — آن مارى ؟ كيف ؟

قال فى حزن — الأنسة أنهت حياتها • من شرفة البيت •
فى قلب الليل • كنا •••

ولكن فى تلك اللحظة فتح الباب • فتحت السيدة المعجوز
بشباب النوم ، شعرها الأبيض مهوش حول رأسها وعلى كتفها
المحنيين شال أسود •

ولما رأتنى صرخت صرخة واحدة ورجعت للخلف •
قالت — هل جئت الآن من أجلى أنا يا سيد ؟ هل جاء
دورى أيضا ؟

ثم أمسكت مقبض الباب وتهاوت على الأرض فرمى الرجل
حقييته وأسرع إليها ، وعدوت أنا ، عدوت على السلم وعدوت
فى الشارع وعدوت فى المدينة •

لم أذهب للبيت ، لم أذهب للعمل ، لم أذهب لمكان •

ولكنى فى المساء كنت فى الفراش •

هل كنت نائما أم كنت مستيقظا عندما خفق فى الغرفة

ذلك الجناح ، وهل كان صقرا أم حلما ذلك الذى رأيت ؟
مددت يدي • كنت أسمع الحفيف ومددت يدي • انبثقت أنوار
والوان لم أر مثل جمالها وحفيف الجناحين من حولى • ومددت
يدي • كنت أبكى دون صوت ولا دموع ولكنى مددت
يدي •

سندس

كان ذلك الصباح الشتوى دافئا بعد أيام باردة نزلت فيها
أمطار نادرا ما تسقط في القرية • وفي صحن الدار كانت
الكتاكيت تجرى وتصوصو بأصوات فرحة بالشمس التي
تغمرها وهي ترفرف بأجنحتها ذات الريش الذهبى القصير •
ومع ذلك فعندما سمعت أم ادريس نباح الكلب خارج الدار
انقبض قلبها • من يأتى في مثل هذا الوقت ؟ لم تكذ تمر
ساعة زمن على خروج رمضان والأولاد الى الأرض • لا يمكن
أن يعود أحدهم الآن ، فهل جرى شيء لعزوز في المدرسة ؟
يمشى كالتائه في البيت وفي الطريق • حدث له شيء في الطريق ؟
مترك يارب • في تلك الليلة حلمت حلما مزعجا لا تذكره •
لكنها تظن أنه كان هناك لحم نىء في الحلم • ليست متأكدة
تماما ، ولكن ربما كان هناك لحم نىء • سترك يارب •

وعندما وقعت أمامها مباركة وقالت :

— سندس الحلبية على الباب •

تهتت وقالت لنفسها : لم يكن ينقصني الا هذا •
سندس عينها والسم واحد ، لكنها أزاحت مباركة يدها ،
وقالت وهي تطل برأسها من الغرفة الداخلية المظلمة :

— ادخلي • ادخلي يا سندس •

دخلت سندس من عتبة الدار تسبقها قدمها اليمنى وقالت :
— بسم الله الرحمن الرحيم • الخير لأهل الخير •

كانت تحمل على رأسها صندوقها العتيق تسنده يدها
اليسرى ، بينما تتدلى من كوع اليد نفسها ، ربطة قماش كبيرة
معقودة ، وكانت تمسك بيدها اليمنى عصاها الطويلة • توجهت
الى أم ادريس التى برز نصف جسمها النحيل من الغرفة •
وضعت صندوقها وربطتها وعصاها على الأرض ، واندفعت
تمسك يد أم ادريس ، وانحنى عليها تريد أن تقبلها • دفعتها
أم ادريس فى صدرها ، وهي تجذب يدها بقوة ، وتقول أ

— ابعدي يا كافرة • لا تحمليني ذنوبك • حبيبة يعنى ؟

اكنفت سندس بأن مالت ، وقبلت كتفها ، وقالت وهي
تجلس على الأرض أمام باب الغرفة المفتوح فى صحن الدار
الشمس :

— أى والله حبيبة ، ويعلم ربي •

جلست أم ادریس على عتبة الغرفة المرتفعة على الأرض
بسلمتين عريضتين ، وقالت وهى تواجه سندس :

— حبيبة ولا نراك الا فى جمع الغلة • قال لك عقلك
أراهم بعد الذرة الشامية • تذهبن الى بيوت الناس ، وتسألين
عن الصحة والأحوال ، أما نحن فلا نراك الا فى جمع الغلة •
كم مرة ذهبت الى بيت الحاج يوسف ؟

كانت سندس تستمع الى هذا الكلام منكسة الرأس •
كانت متمعة بهذا الصباح • شعرت بالربطة والصندوق ثقيلين
فى يدها فى الطريق •

وتنبهت أنها لم تفطر بعد • ستفطر فى هذا البيت بعد
قليل • وسيأتون لها بالشاي ، ورغيف القمح ، والبيض المشوى •
أما الآن فالعمل صعب كالعادة مع أم ادریس • كيف تبدأ ؟
انحنيت تفتح ربطتها وقالت وهى تضحك :

— يديم سعدك يا أم ادریس وأسأل عنك فى الأفراح •
اليوم عندى لك بضاعة كلها ان شاء الله للأفراح •
هزت أم ادریس رأسها وقالت :

— جئت الى بعد أن انتهيت من الأحباب يا سندس ؟

لكن سندس بدأت تخرج الأثواب المطوية من ربطتها الكبيرة • وأحست وهي تفعل ذلك بعينين مثبتتين عليها • كانت مباركة تقف الى جانبها صامته لا تتحرك • كانت تتأمل عيني سندس الخضراوين المحاطتين بكحل كثيف ووجها الأبيض المستدير ، ولما أزاحت طرحتها رأت شعرها الأصفر اللامع ، ورأت في أذنها حلقا هلاليا مذهبا يكاد يصل الى كتفها • وعندما التفتت اليها قالت مباركة :

— أنت حلوة يا سندس وحلقك حلو •

ضحكت سندس مرة أخرى وقالت :

— أنت الحلوة • بسم الله ما شاء الله • كبرت يا مباركة •

ثم التفتت لأمها وقالت :

— عينا واسعة وجميلة كعين البقر •

ولما بدأت سندس تفرد ثوبا من الحرير الأزرق ، وتعرضه على ذراعها أشارت أم ادريس بيدها خفية لمباركة أن تبتعد ، لكن الصغيرة جلست مقرفصة بجانب الحليبة وبدأت تهرش رأسها • ولاحظت سندس حركة الأم ولم تبد شيئا ، لكنها عرفت الآن ما عليها أن تفعله •

رفعت سندس الثوب المطوي بيدها اليسرى ، وعرضت

القماش الأزرق المقلّم بخطوط ذهبية ، ثم فردته على ذراعها اليمنى ، وراحت تهزه •

وهى تقول بنبرة اعتزاز :

— ما قولك يا ست العارفين ؟ هل رأيت مثل هذا عند أحد ؟

لكن أم ادرىس حولت بصرها ، وقالت بفتور :

— لا تتبعى نفسك يا سندس • لن أشتري ولا بقدرح قبح • الأرض لم تمط هذه السنة •

التفتت سندس الى مباركة ، وظلت تهز القماش وهى تقول :

— وتبخلين بالثوب الجميل على هذه المروس الجبيلة ؟
قالت الأم :

— هذه العويل •••

فقالت سندس :

— هذه القمر • انتظري عليها الى أن تطلع الرما تان •
سيطير لها عقل رجال •

ثم وضعت الثوب الأزرق جانبا ، وبدأت تفرد ثوبا من القطن منقوشا بورد أحمر •

قالت أم ادريس بعصية :

— وهذا الثوب الأصفر الذى تخفيه تحت الأتواب • لم
تخفيه يا سندس ؟ لمن تخفيه •

قالت سندس :

— ما هو مخبوء خلف نى العين أفرشه لأم ادريس ،
وأفرش لها خدى لتمشى عليه •

لكن أم ادريس هبت فجأة ، واندفعت نحو ابنتها التى
كانت تدعك عينيها ، وقالت وهى تقبض على يدها :

— يا عويل ، يا هالكة ناسك • طول النهار فى التراب •
يدك فى التراب ، ويدك فى عينك • لا قطرة نافعة ولا شافعة ••

لكمتها فى ظهرها ، واندفعت البنت تجرى داخل البيت
وهى تبسكى ، وتناثر الكسكايت التى كانت قد جمعت كتلة
واحدة فى الشمس ، وراحت تعدو متبعثرة فى صحن البيت وهى
تصدر أصواتا رفيعة فزعة •

قالت سندس للام التى عادت تجلس على عتبة الغرفة :

— لا تضريها يا أم ادريس • لم تعد طفلة • سنة
أو سنتان ، ويأتيها الخطاب • وسيمحرم جمال عينيها •

زمت أم ادریس شفيتها ، وقالت للحليبة وهي تلهث :

— لا تتمبى نفسك يا سندس • قلت لك لن أشتري
ولا بقدر قمح • تخفين عني الثوب الأصفر ؟ تخفين الأشياء
الجميلة لأحبائك ؟ لن أشتري ولا بحفنة قمح •

قالت سندس وهي تنزع الثوب الأصفر الذي لم يكن
يظهر الا طرفه من تحت بقية الأثواب :

— ما شاء الله يا أم ادریس ؟ تخوين خدامتك وجارتك ؟
والله هذا الثوب لك ، ولن آخذ فيه شيئا • هو منى لمباركة • •
وألقت الثوب بجاب الأم وهي تقول :

— والله هذا عندي • الغالى للغالية يا أم ادریس •

قالت أم ادریس وهي تقوم من جديد :

— لا تنفع معى حركاتك يا سندس • اطفئى الشاى وبمدها
يحلها الحلال •

لكن عقلها كان مشغولا وهي تمضى • • ماذا تفعل لتصرف
هذه العين الملعونة عن مباركة ؟

في الظهيرة ، كانت السحابات القليلة قد تبددت • وتحولت
شمس الصباح الى لسعة حامية ، فلاذت الكتاكيت الى الظل ،
وخفت أصواتها • وكانت سندس أيضا تجلس في الظل وهي
تسند ظهرها الى الحائط ، وقد مدت ساقها ، وأمسكت بيدها

كوباً من الشاي • وكانت تحتضن مباركة بيدها الأخرى ، وقد
جلستا وحيدتين وصامتتين •

كانت سندس قد أفطرت • وكانت قد باعت الثوب
الأصفر ، والثوب الأزرق المقلّم ، والثوب المنقوش بالورد •
وباعت من صندوقها أبريقاً للشاي ، وأطباقاً من الصينى •
وشربت أم ادريس فنجاناً من القهوة ، وقرأته لها سندس • ورأت
فيه أن الأرض ستمطى كثيراً ، وأن أم ادريس ستصحج الى بيت
الله ، وها هى زينة العودة • وسينجح عزوز فى المدرسة هذا
العام • أنصتت لها أم ادريس بائبها وهى تعتمد ذقنها بيدها ،
وتهز جسدها على وقع كلمات سندس • ولكن بعد أن انتهت
الحلوية قالت لها : ان عزوز خائب ، وان الأحسن له أن يترك
المدرسة ، ويعمل فى الأرض مع أبيه وأخوته •

رفعت مباركة رأسها من حضن سندس وسألتها :

— لماذا تحلين دائماً هذه العصا الطويلة يا سندس ؟
قالت سندس :

— لأهش بها الكلاب يا مباركة • أثقل طول النهار من
بيت الى بيت والكلاب لا تعرفنى • لو لم تكن معى العصا
تتهشنى الكلاب •
قالت مباركة :

— ولكن أنت أحلى واحدة في البلد يا سندس • لم
لا تزوجين وتقعدين في بيتك ؟

ضحكت سندس وقبلت مباركة • وكانت الأم تعود وهي
تعمل في ربطة صغيرة رغيفين من القمح ويضات مشوية •
وعندما رأتها سندس أبعدت يدها عن مباركة • وكانت أم أدريس
تقول لابنتها :

— رجعت يا مكشوفة الوجه •

فقامت مباركة تجرى واختفت داخل البيت •

وعندما نهضت الحلبية ، وساعدتها أم ادريس في وضع
الصندوق على رأسها ، وتوجهت نحو الباب ، وهي تدعو
لأم ادريس ، وللحاج • وللأولاد ، تذكرت مباركة ، وتذكرت
المرّة القادمة التي ستأتى فيها الى هذا البيت فتوقفت وقالت :

— ويخلى لك مباركة وتفرحين بها يا حاجة • البنت كبرت
ما شاء الله • لكنها مثل عود الذرة الناشف • خذوها للطبيب •
غدا يفرطها خراط البنات ، ومن يرضى بنت مثل عود الذرة ؟

خرجت الحلبية ، وسمعت الأم نباح الكلب ، وصرخات
سندس عليه وهي تهشه ، فتنهدت • لكنها نادت مباركة • راحت
للكانون وهي تجذب البنت من رقبتها • أخرجت من جيب
جلابها الأسود فصا من المستكة ، وأخرجت بالماشة جمرتين ،
وجعلت مباركة تخطو فوقهما سبع مرات •

النافذة

ظن البعض انها نكتة • ففي الصباح في البرد ، قبل شرب الشاي ، وساعة الرؤوس المختفية داخل صحف الصباح مر علينا الساعي بمنشور ادارى غريب • رفض البعض استلامه ، وقالوا انها لعبة سخيفة على الصبح ، واتهموا الادارة المجاورة • ولكن بعد أن تأكد الأستاذ كمال أن توقيع المدير العام لا تزوير فيه وقعنا بدورنا بالعلم والتنفيذ: « ممنوع على الموظفين الوقوف في النوافذ والشرقات في أوقات العمل الرسمية » علت الدهشة والتكهنات وقال حسان بغموض ان الأمر أخطر مما تصبور ولكننا كنا متأكدين انه لا يعرف أى شيء •

وبعد لحظة دخل مديرنا ووقف وسط المكتب صامتا محنى الرأس ويده المنشور • سأله سامح عن المسألة ولكن المدير

قال وهو يتأمل المنشور في حزن : ان هذه هي آخر قصة .
فلا يكفي انه متخلف عن كل زملائه في الدرجة ، ولا يكفي أن
الحكومة ترفض الاعتراف بالدكتوراه التي حصل عليها من
اليابان وتعامله بالليسانس ، ولا يكفي انه مبعد عن كل اللجان
ذات الأجر الإضافي ، ولكن ها هو النحس الأخير : المدير العام
يهدده بالنقل لأنه لا يستطيع أن يسيطر على الموظفين .

كان سمير أكثرنا خبرة بمديرتنا فأجلسه على كرسي في وسط
المكتب ، وطلب له الشاي ، وقال ان الأمور في المصلحة سلطة ،
وان الكفاءات مضطهدة وان الموت أحسن من الحياة بكثير ،
وان أحدا لا يفهم شيئا - فمثلا ما معنى هذا المنشور ، قال
المدير حزينا ان سببه هو دلع البنات . فالبنت التي لا تريد أن
يعاكسها أحد تبعد من نفسها ، وقد ظل يقول هذا دائما لناظرة
المدرسة الثانوية التي تواجها كلما كلمته في التليفون واشتكت
من معاكسة الموظفين للبنات . ولكن اتضح أخيرا أن في مجلس
الأباء بالمدرسة رجلا مهما جدا ، اشتكت له الناظرة ، فاتصل
بالمدير العام ، وهدد أن ينقل المسألة للوزير شخصيا ان لم
تتوقف معاكسات الموظفين .

سأل سمير ، ولكن لماذا يهتمون ادارتنا بالذات ؟

فقال المدير ان هذا في الغالب من شكاوى الناظرة الملمونة ،
ثم وضع يده على صدره وسألنا ، هل نريد أن نذبحه ذبعا ؟

الا يمكن أن نكف عن المعاكسة من أجل خاطره .

تعال أصواتنا بحب المدير ، وأكد سبير أن المعاكسة نوع من التفاهة ، ووافقناه جميعا . قال المدير انه لا يبقى في المصلحة الا من أجلنا ، لأننا كأولاده ، أما بقية المديرين الملاعين فهم يكلمونه من أنرفهم . يتباهون عليه بعضوية اللجان في الغالب . والآن ها هو تعنيف المدير العام . . فهل معنى هذا أن تضيع عليه فرصة الترقية بالاختيار في المرة القادمة أيضا ؟ . . وهل يجب في هذه الحالة أن يدخل لوكيل الوزارة بنفسه ؟ . . أم يهاجر الى اليابان ويشغل بتدريس اللغة العربية في جامعة هناك ؟ .

كان علينا أن نهديء مديرا المتخلف في الدرجة وأن نؤكد له أن مخاوفه غير صحيحة ، وأن مكتبنا بالذات مشهود له في المصاحبة بأنه لا يعاكس البنات . وعندما جاء الشاى سأله الأستاذ كمال أكبرنا سنا ووقارا - هل صحيح أن شرب الشاى هو نوع من العبادة في اليابان ؟ فشرح مديرا بالتطوير أنه ليس كذلك ولكنه نوع من المحبة بين البشر ، ثم فرد يديه ليشرح ، ولكنه تمثر وكرر بصوت خافت (المحبة بين البشر) . قال حسان انه سمع من مصادر مؤكدة انهم يشربون الشاى هناك بمغارات مخصصة في الجبال ، فغضب مديرا لذلك وقال ان اليابان راقية جدا ، وانه البلد الوحيد في العالم الذى تجرى

فيه القطارات على كبار معلقة فوق المدن • قال سامح ، وكيفي
أيضا أن مديرتنا تعلم هناك • احمر وجه المدير وخرج وهو
يتمتم بكلمات غير واضحة •

عندما خرج عاتبتنا سامح لسخافته مع المدير ، ولكنه
أشاح بيده قائلا اتنا سعداء لأننا تركبه • أما الحقيقة فهي أن
المصلحة كلها تركبنا بسبب ضعفه • فمثلا لماذا لا نحصل
على مكافآت تشجيعية ؟

قال سمير ان مديرتنا طيب جدا ، وانه من أنشط المديرين
بالفعل ، وانه ينجز العمل بكل مهارة ، ولا يعيبه غير مسألة
الشكوى فأيدناه في ذلك أيضا •

ولكن حسان انتهز فرصة تجمعنا في وسط الغرفة وقال
انه نتيجة لبعض الظروف والمشاكل العائلية فهو يريد جنيتها من
أى واحد منا • اعطاه الأستاذ كمال الجنيه وهو يتسهم في خجل ،
وعدنا الى مكاتبنا •

وبعد قليل انتهت الحصة الأولى في الفصل المقابل لنا •
بدأت البنات يتفنن في النواخذ ويشرن بأيديهن ولكن أحدا لم
يتحرك واكتفينا بالنظر من أماكننا على المكاتب • وتكرر ذلك
بعد الحصة الثانية ووقفت البنات يتهايمن باستغراب ، ثم

تجرات واحدة فوضعت كرسيًا فوق مكتب وجلست عليه بحيث أصبحنا نراها جميعًا ثم وضعت ساقًا على ساق وبدأت تزيح ذيل مريلتها بالتدريج ، والبسات يصفقن ضاحكات ، وعندما ظللنا جامدين في أماكننا بصقت نحونا باحتقار ثم نزلت وأغلقت النافذة في عنف •

وقال الأستاذ كمال ووجهه محمر جدًا انه يلاحظ أن الجيل السابق كان أكثر أدبا من الجيل الحالي وهو لا يعنينا بالذات •

فقال له سمير أن يأخذ راحته في الكلام •
قبل الظهر تأكد أن الشبهات تتركز حول مكتبنا •• جاءنا استدعاء جماعي عاجل من النيابة الادارية فذهبنا نحن الخمسة كمال وسامح وحسان وسمير وأنا • جلسنا متراصين أمام باب وكيل النيابة الذي استدعانا حسب الحروف الأبجدية •

بدأ الجميع سعداء بفرصة الخروج من المكتب قبل موعد الانصراف وكانوا متحمسين ومرحين ، ولكن من يحين عليه دور الدخول كان ينقبض قليلا • وقال الذين خرجوا ان الاجراءات بسيطة : تقسم أن تقول الحق ، وتقسم أنك لم تعاكس وأنت لا تعرف من يعاكس ثم توقع في نهاية الورقة • وقال حسان انه أقنع وكيل النيابة ببراءتنا جميعا وأنه وضعه في جيبه تقريبا وليس لنا أن نخاف من شيء • ولكن كانت هناك مفاجأة - فقد خرج سمير عابسا ورفض أن يبوح لنا بشيء •

كان دورى هو الأخير ، وحين دخلت كان وكيل النيابة
يتكلم فى التليفون هامسا ويقول (نعم .. نعم .. نعم) —
وأشار لى بيده أن أجلس وأشار لسكرتيه الذى كان يجلس
أمامه فى وقار ، عابسا تقريبا ، فدون اسمى فى رأس ورقة
وكتب سطرين وجعلنى أقسم أن أقول الحق •

وضع وكيل النيابة الساعة وتنهّد وضم يديه أمامى على
المكتب وقال لى — أنت بالطبع لا تعاكس •

بالطبع • وبالطبع لا أعرف من يعاكس وأقسم •

وصمت وكيل النيابة وراح ينظر الى والى السكرتير من
وراء نظارة طبية سوداء • ثم سألنى بغير مبالاة أ

— هل أنت عازب ؟

— نعم •

— وأين تسكن ؟

— فى لوكاندة •

— وأين أسرّتك ؟

— فى البلد •

كانت عيني على السكرتير وهو يبتشئ ذلك بخط سريع غير مقروء وعندما انتهى أردت أن أقوم ولكن وكيل النيابة أشار لى بيده أن أجلس - وسألنى :

- أين مكتبك بالضبط بالنسبة للنافذة المطلة على الفصل؟

- بجوارها مباشرة *

- وبالنسبة لمكتب من يسمى **

بدأ يقلب فى الأوراق فقال سكرتيه بسرعة وأدب :

سمير حسن *

رفع وكيل النيابة رأسه من الأوراق وتطلع الى مستنهما :

نعم ، سمير حسن *

فقلت : أمامى * مكتبه فى مقابل مكتبى *

فقال : اذن فاذا وقف واحد عند النافذة فلايد أن تراه

أليس كذلك ؟

- نعم * ولكن الجميع يقفون *

قال وهو يرفع يده أمام وجهى ويتسم أرجوك أجب

على قدر السؤال *

فقلت : نعم *

قال وهو ما يزال يتسهم : أين تقضى أوقات فراغك بعد
العمل ؟

— ...

— هيا ، أين ؟ .. فى اللوكائنة ؟ فى المقهى ؟ فى ناد ؟ على
النيل ؟ ليس صعبا أن تجيب •

— لا أعرف كيف أجيب •

— اذن فأنت لا تفعل شيئا محددًا ، تفعل شيئا مختلفا فى
كل يوم • أهذا هو الجواب ؟

— أنا لا أفعل شيئا أبدا • أمشى فى الشوارع حين أجد
الوقت •

— وحدك •

— وحدى •

— ولكن كيف ؟ ماذا تفعل ؟

— أليس لك أصدقاء ؟

— زملائي فى المكتب — لكننا لا نلتقى بعد العمل •

— أمشى فقط ، ثم أعود الى اللوكائنة •

— من يقف فى النافذة ؟

- ماذا ؟
- من يقف في نافذة المكتب ؟
- لا أعرف •
- قلت حالا أن الجميع يقفون •
- نعم •
- من بالذات ؟
- لا أحد بالتحديد • الجميع يقفون •
- بدأ يقرأ على الاسماء ويسألني وهو يقرأ كل اسم :
- « هل يقف في النافذة ؟ » — أردت أن أقاطعه ولكنه قال لي
- وهو يقرأ (نعم أو لا) •
- قلت بصوت مرتفع الى حد ما — لا أعرف • لا أراقب من
- يقف بالنافذة •
- وماذا يفعل من يقف في النافذة ؟
- لا أعرف •
- هل تقف أحيانا في النافذة ؟
- لا •• نعم ، نعم • أقف أحيانا •
- وماذا تفعل حين تقف في النافذة •
- لا شيء • أخرج على الشارع •

- وماذا يوجد في الشارع ؟
- أقف أحيانا لأنني تعبت من الجلوس على المكتب .
- ماذا يوجد في الشارع ؟ الا يقع بصرك أحيانا على
- فصل البنات أمامك ؟
- لا .. نعم ..
- أنت مرتبك ؟
- لا ..
- متعب ؟ نوقف التحقيق ؟
- لا ..
- كن صريحا . المسألة سهلة . نوقف التحقيق . أطلب
- لك كوبا من الشاي ؟
- لماذا ؟ فقط أرجوك أن تسألني أسئلة محددة .
- هل ستعلمني عملي ؟
- لا . أنا آسف .
- هل تشعر أنني متحيز ضلك ؟ هل هناك سبب لهذا ؟ ..
- مطلقا . أنا آسف .
- ما معنى هذا إذن ؟ أردت أن أطلب لك الشاي .

— أشكرك • لا داعى •

— اذن سؤالى واضح وبسيط • هل تنظر أحيانا الى
فصل البنات ؟

سكت مرة أخرى فقال وهو يضحك متحيرا •

— أنا لا أفهمك • أنت انسان غريب • تتوقف عند الأسئلة
البسيطة • زميلك سمير اعترف بكل بساطة أنه يعاكس البنات
فى المدرسة ولم نسجنه لذلك • المسألة كلها تافهة فى الحقيقة •
وأنت ترفض الإجابة على الأسئلة البسيطة •

— غير صحيح • غير معقول أن يقول ذلك •

قال وهو يخلع نظارته : كما تشاء • أجب على سؤالى •

صحت فجأة : حسنين سالم !

قال فى دهشة • نعم ؟

أشرت له بارتباك : أنا آسف ، ولكن سيادتك •• حين
خلعت النظارة •• أقصد — هل أنت حسنين سالم ؟ السعيدية
الثانوية ؟ القسم الداخلى ؟

قال : نعم • ثم حذق فى لفترة ، وبدأ يضحك فجأة وهو
يقول : أنت ا

فأسرع سكرتيه يقرأ اسمى بلهفة ويتطلع اليه مبتسما
فقال : نعم ، نعم .. الرحلة للسودان مشيا على القدمين ! ثم
عاودته نوبة الضحك - وضحكت أنا أيضا حين تذكرت .
قال وسط ضحكاته وهو يمسك جبينه : عدنا قبل أن نصبل
الى الحوامدية .. بل قبل أن نخرج من الجيزة .

فقلت له : أنت الذى بدأت بالشكوى .

- تورمت أقدامنا ، ولم نستطع أن نشرح شيئا لمشرف
القسم الداخلى . ولكن ماذا حدث لمشاريعك الأخرى ؟

قال السكرتير بهمس مسموع وهو يشير للأوراق
هل ... ؟

فقال له : نعم ، نعم ..

ثم أملاه سطرين ، وأشار لى السكرتير أن أوقع وهو
يبتسم فى وجهى ثم جمع أوراقه وخرج .

قال لى حين خرج السكرتير - احك لى . ماذا حدث
لك ؟ .. كنت تفكر أن تعمل طباطبا على مركب وتهاجر للبرازيل
أليس كذلك ؟

قلت : أنا الآن منتسب لكلية التجارة ..

رحنا نتكلم ساعة ، وقبل أن أخرج سألته عن التحقيق
فقال بلا اهتمام :

— حكاية تافهة • أنا في حياتي لم أحقق في قضية تافهة
كعذه • عندي اختلاسات وبلاوى كبيرة ، ولكن مصلحتكم
تهتم بمكارم الاخلاق •

بدأ واضحا أنه لا يرغب في الحديث عن ذلك ، فصافحته
وخرجت •

حين عدت الى المكتب سألوني عن سبب بقائي طول هذا
الوقت •

حكيت لهم ، وقلت لسمير ضاحكا ، اننى أوصيته ليراف
به • لكن سمير وقف فجأة خلف مكتبه وقال وهو يلوح في
وجهي •

— أنا لا تهمنى وصاياك ! وقل لصديقك هذا أيضا انى
لا تهمنى اتهاماته • اذهب وقل له اننى أنا وحدى الذى أعاكس
بنات المدرسة •

قلت بدهشة : ماذا جرى ؟ وما ذنبى أنا ؟

فقال : ألم تقل ان هذا المجنون صديقك ؟ ! اذهب وقل
له سمير حسن عبد السلام هو وحده الذى يماكس ويصاحب
ويسئ مع كل البنات ، ويقفز من النافذة الى المدرسة كل
يوم أيضا •

تدخل باقى الموظفين لتهدئة سمير ، وجاء الشاى وأحاطوا
بمكتبه ، وتردد اسمى عدة مرات ، وانهمكت أنا فى فحص
أوراق لا أفهم ما فيها ، وأخيرا قام سمير وتقدم نحوى ،
والبعض يدفعه فى ظهره •

قال : حثك على •• أعصابى تالفة •

فقلت : لا تهتم ، أنا أقدر •

قال وهو يضحك فى حيرة : بعد كل تلك الأسئلة لو كان
قد سألك !

— ولكنه سألنى •

— لا ، لم يسألك عما تفعله حين تقف فى النافذة ولا عن
الطريقة التى تقضى بها أوقات فراغك ، ولا عما إذا كنت متدينا •
وكيل نيابة هو أم أمام ؟ أراهن أن له خمس عشيقات • والطريقة
التي يسأل بها أيضا ! انفجرت فيه أخيرا وقلت له إذا كان يريد
أن يقول انى أعاكس البنات فليقل ذلك • وكتب هذا بالفعل •
كنت مستعدا أن أقول له اننى أقتل البنات بشرط أن يتوقف
أسئلته •

قلت ببساطة : هذا عمله • وحين نظر الى سمير مندهشا
أكملت بسرعة : ولكن أسئلته غريبة • سألنى أنا أيضا بعض
الأسئلة ••

قال سامح : عن أى شىء ؟

فقلت بارتباك : نفس الأشياء تقريبا .. ماذا أفعل فى
النافذة .. من يقف فى النافذة .. أين أعيش ..

قال سامح : وبماذا أجبت ؟

قلت : لم أجب بشىء . قلت له اننى لا أعرف شيئا عن
الموضوع كله ، ولم يطل التحقيق فى الواقع ، .. استغرقت
الذكريات معظم الوقت ..

سأل سامح بالحاح : وهل أوصيته على سبيل بالفعل ؟
كانوا جميعا يتطلعون الى باهتمام فقلت بسرعة : نعم ،
نعم ، أوصيته .

فقال سبيل : أشكرك . أنا آسف مرة أخرى .

ثم عاد الى مكتبه وعدت الى أوراقى وأنا لا أجسر على
التطلع اليه لفترة .

فى اليوم التالى كنا قد نسينا ، وبدأنا أيضا نلوح للبنات
من أماكننا على المكاتب ، وفى اليوم الثالث تجرأ سامح ووقف
يتفاهم مع صاحبه بالإشارات وتبعه باقى الموظفين - ثم عادت
الأمور كما كانت من قبل مع احتياط : كان على الساعى الواقف

بالباب أن يخطرها بظهور أى شخص غريب فى المر • ولكن حدث بعد أسبوع ما لم تكن تتوقعه •

دخل مديرتنا المكتب عدة مرات وخرج صامتا ومشغولا ، ففهمنا من ذلك أنه يريد أن يقول شيئا ، وأوفدنا سمير ليعرف •

عاد سمير بعد لحظات شاحب الوجه ، وجلس على مكتبه ويده ورقة مطبوعة صفراء ، وضعها على المكتب وتقدمنا جميعا متوجسين أزاح الورقة نحونا ويده ترتعش وقرأنا وسط كلام كثير « يعاقب بالانذار لاعترافه وما أثبتته التحقيق من سلوكه المريب فى العمل » • ساد الصمت والوجوم ثم انفجر أحد الموظفين : هذا عبث ! تظلم لمجلس الدولة •

وقال سامح : ولا يهمك ، احمد ربنا • الانذار لا يوقف الترقية •

ولكن سمير نظر له غاضبا وبدا على وشك أن يشتتبه فتدخل الأستاذ كمال بسرعة وأفتى بأن التظلم يكون للوزير أولا • وكثرت الفتاوى ، ولكن سمير قطعها بصوت عال ومرتعش وقال وهو يطوى الورقة •

— أنا سأعرف ما أفعله • لن أسكت على هذه الفضيحة فى ملف خدمتى •

وبينما كنا تفرق من حوله قال سامح وهو يشير لى
ويضحك ..

— كله من صديقك ومن وصاياك !

اتجهت الانظار نحوى وأردت أن أعترف بأننى لم أوصه ،
لم أكن أملك أن أفعل ذلك فى الحقيقة ولكننى التزمت الصمت
وعلت الى مكتبى •

كان ذلك اليوم صامتا ، وثلثه أيام كئيبة • راح سمر
يتكلم بالتليفون معظم الوقت ويجرى استشارات هامة مع زوار
غرباء لمكتبه ، ولم يدقق مديرنا كثيرا فى مواعيد حضوره
وانصرافه ، ولكن سامح قال انه لو كان مديرنا قوى الشخصية
لما أمكن أن يحدث لسمر ما حدث • وتوقفت المعاكسات
أثناء وجود سمر فى المكتب •

وبعد ثلاثة أيام حدث ذلك الشيء • دخل سمر المكتب
مبتسما لأول مرة منذ الانذار ، وحين جلس على مكتبه سأله
عن الأخبار •

فنظر الى طويلا ، ثم قال وهو يفتح صحيفته •

— الحمد لله •

لكننى قلت له بلهجة عادية وبصوت عال ••

— هل هناك أخبار جديدة ؟

قذف الجريدة على مكتبه بعنف وقال : ما هي الأخبار
الجديدة ان شاء الله ؟ هل تريد أن أفصل نهائيا لكى تستريح ؟
قلت : أنا مخطيء حقا لأنى اهتم بالسؤال عنك •
حقك على •

فقال وهو يضحك ضحكة غريبة متقطعة : ما شاء الله !
أنت الذى ستغضب الآن ؟
ما معنى هذه التمثيلية ؟ هل تعتقد أنى حمار لأنى
لا أتكلم ؟ •

— وما معنى هذا ؟ أنا لا أفهم أى شيء •

— ولكن أنا أفهم • هذه الطبخة كلها طبختها أنت
وصديقك • ما معنى هذه العبارة من فضلك قل لى « بناء على
اعترافه وما أثبتته التحقيق » ما الذى أثبتته التحقيق ؟ لم يتكلم
أحد من الموظفين هنا عن شيء ، أنت وحدك الذى طال التحقيق
معه • أنت وحدك صديق وكيل النيابة • وأنت وحدك الذى
ستستفيد من تعطيل ترقيتى لو •• (لو حدث وتمطلت) •
وأنا أبشرك بانها لن تتمطل •

ثم ضحك من جديد وقال — أنت وحدك الذى أوصيته
على •

قلت وأنا أقف وأدق على مكتبي • هذا اتهام حقير
ولا أسمح لك به ••

فقال : أنا آسف يا صاحب وكيل النيابة • أنا لم أرد أن
أكلمك أصلا ولكن أنت الذى بدأت • تنحى سامح ، وقال :
يا جماعة •• حصل خير •• كنتم دائما أحسن أصدقاء •

همهم باقى الموظفين بكلمات غير مسموعة • فقال سمير
مخاطبا سامح وهو يعود لجريدته •

— معك حق • وهذا يثبت أنى مغفل كبير • ولكن الدور
عليكم • الجاسوس دائما جاسوس •

هجمت على مكتبه ولكن الجميع وثبوا وأمسكو بى
وأعادونى الى مكتبي وأنا أصرخ بكلام لا أعرفه • حين هدأت
عادوا الى أماكنهم وانهمكوا فى أوراقهم ، وتحاشى الجميع أن
تلتقى أبصارهم بى •

انقطعت المعاكسات نهائيا فى المكتب بعد ذلك اليوم ،
وبدا سامح يعاملنى بأدب مبالغ فيه ، وقال لى حسان انه
لا يصدق اتهام سمير لى ، ولكنه يرجونى أن أقدر حالته
النفسية ، واستدعانى مديرتنا الى مكتبه ، وقال لى ان معظم
الأشياء تبدأ صغيرة ثم تكبر ، وانه لا فرق بين الاتهام الظالم
والاتهام الحقيقى ، وأثنى ان لم أصالح سمير فسوف أخسر

أشياء أكثر من سمير • خرجت من عند المدير مسرعا دون أن أرد عليه ، ثم وقفت وسط مكتبنا أحاول أن أسيطر على الرعدة في صوتي وقلت ان آى كلب لديه اتهام لى فليثبتته وليواجهنى بصراحة ، وعندما تطلع الى الجميع فى صمت ودهشة خجلت من نفسى وتوجهت الى مكتبى بخطوات مسرعة • وبعد لحظة قال سامح مخاطبا الأستاذ كمال ومركزا نظره عليه :

— اذا كان الانسان يكره العمل فى مكان فما عليه
الا أن يتركه •

فقال الأستاذ كمال بحماس ووجهه مجتقن •• هذا
رأى أيضا ••

قلت لسامح بصوت عال انتى أفهم أساليبه السافلة وان رأيتى فيه بصراحة أنه كلب • فقال بهدوء انه لن يرد على ، وانه لا يعتب على أيضا لانه يفهم أمثالى ويرثى لى • فضحك سمير ضحكة وهو يرفع رأسه من الجريدة وقال ان هناك نكتة لطيفة فى الجريدة ، حكاهما ، وضحك باقى الموظفين •

عند الظهر فى ذلك اليوم طلبنى وكيل النيابة فى التليفون ، لم أكن قد رأيته أو سمعته منذ التحقيق فدهشت ، ولكننى كنت حريصا على ألا أذكر اسمه وأنا أكلمه فى التليفون أمام الموظفين • قال لى انه يريدنى لأمر هام — ورجانى أن أذهب

فورا الى مكتبه وألا أذكر ذلك لأحد • عندما توجهت الى مكتبه طلب منى السكرتير أن أنتظر قليلا • قال لى ان هناك بعض الزوار لدى السيد وكيل النيابة ، وهو يريد أن يقابلنى على افراد • كان السكرتير مهذبا كمادته لكنه كان متجها - جلست فى مكتبه الصغير لفترة وبعد لحظة جاء الساعى وطلب منى أن أتفضل •

حين دخلت عند وكيل النيابة وجدته يقف وسط المكتب وهو يشبك ذراعيه على صدره • ابتسم ابتسامة غريبة عندما رآنى ، ولما لاحظ يدي الممدودة صافعني بارتباك وقال لى وهو يشير الى كرمى •

— تفضل •• تفضل ••

لكنه ظل واقفا وعاد يشبك ذراعيه على صدره فبقيت واقفا أنا أيضا ، ورحت اتطلع اليه منتظرا أن يتكلم •

قال لى بلهجة عادية وهو يبتعد عني ويبشى فى الغرفة - أنا آسف ان كنت قد أزعجتك ، ولكننى أريد أن أسألك سؤالا صغيرا • هل حكيت لأحد أننا كنا زملاء فى الدراسة ؟ •

— نعم فى يوم التحقيق ، قلت هذا لباقي الموظفين •

— ولكن لماذا ؟

— ولماذا لا ؟

ضحك وهو يقف أمام مكتبه ويعبث ببعض الأوراق دون هدف • ثم قال : معك حق ، أنا لم أطلب منك ألا تقول ، ولكننى لم أتصور أن زملاءك بهذه التفاهة • يظل الانسان يتعلم دائما •

— ولكن ماذا تقصد بالضبط •

قال دون مبالاة وهو يواصل العبث بأوراقه : هل أنت الذى تعاكس البنات فى المدرسة ؟
قلت وأنا أبلغ ريتى : لا ••

فقال بسرعة : عظيم • اذن فتمسك بهذه الاجابة •

— ولكننى قلت ذلك من قبل • قلت لك •

فقال وهو يعود للتجول فى المكتب : ربما تضطر أن تقوله لغيرى •• هناك شيء سخيف •• شكوى تافهة وصلت لرئيس النيابة بأنك أنت الشخص الحقيقى الذى يعاكس البنات وأنتى أدنت زميلك ظلما لأنك صديقى • شكوى تافهة بطبيعة الحال ولا قيمة لها ، ولكن لا بد أن يحقق فيها •

— يحقق فيها معك ؟

قال بسرعة وهو يمود لمواجهتى : لا .. لا .. كيف ذلك ؟
معك أنت بطبيعة الحال .

ثم وضع يده على كتفى وقال : كل ما أرجوه منك أن
تتمسك بالحقيقة . قل ما ذكرته لى ، افك لم تعاكس ولا تعرف
من يعاكس . لا تغير أقوالك التى أدليت بها أمامى .
- هذا طبعى .

قال وهو يضحك : لاحظ أن مرسل الشكوى مجهول ،
ولكننا أنا وأنت تعلم بالطبع من الذى أرسلها .. ربما يستدعى
زملأؤك للتحقيق أيضا فهل تتوقع أن يشهدوا فى صفك ؟
كان ينظر فى عيني مباشرة فقلت بصوت ضعيف :
لا أظن ..

رفع يده من على كتفى وقال بشئ من الغضب : لماذا ؟
أليس لك أصدقاء ؟
- لا ..

- ولكن كيف ؟ لا يهم . لا يهم . قالوا فى التحقيق الأول
انهم لا يعرفون من يعاكس ، ولن يفيد أن يغيروا أقوالهم الآن .
المهم أن تتمسك أنت بأقوالك .
- ولو سألونى ان كنت صديقى ؟

ابتعد عني من جديد وقال : الحقيقة • قل انا كنا زملاء
في المدرسة • ولكن لا داعي للتفاصيل هه ؟ • لا تحك لهم عن
رحلة السودان أو عن ••

ثم توقف فجأة ولوح بيده نافذ الصبر وقال - قل
ما تشاء •• لن يضرني أى شيء تقوله أكثر من الضرر الذى
حدث بالفعل ••

قلت خجلا من نفسى : أنا آسف ••

قال هو بلهجة العادية من جديد : لا •• لا ، وما ذنبك ؟ ••
أرجوك فقط ألا تحكى عن هذه المقابلة أيضا •• أنت تفهم ••
حياد وكيل النيابة ، هو كل شيء بالنسبة له - ولم يحدث في
عشر سنوات عملت فيها ان قدمت شكوى تمس هيئتي -
اختلاسات ومصائب •• والآن من وراء تحقيق تافه ••

انصرف عني ومشى حتى وقف عند النافذة وظل ينظر عبر
زجاجها المغلق فترة طويلة ، لم أجد في ذهنى شيئا أقوله ،
ولكننى صرخت :

- أتريد أن تعرف الحقيقة ؟ اذن اسمع • سأقول ما هي
الحقيقة • كل الموظفين ، كلهم يعاكسون البنات • كلنا • والبنات
يعاكسن الموظفين • كل واحد له صاحبة • البعض لهم أكثر

من صاحبة • يخرج الواحد مع اثنتين أو ثلاث ويذهبون الى الكازينوهات •• أحيانا الى البيوت ، وبعض البنات لسن ••

— اهدا •• أرجوك •• ما أهمية ذلك ؟ •• اياك أن تقول شيئا عن هذا أسمعنى ؟ نحن لن نصلح الكون •

— نعم • عن اذلك • اتسمح لى ؟

— ليس قبل أن تمد ياك •• بانك سوف تتمسك بأقوالك الصحيحة •• أرجوك ألا تزيد الموقف سوءا ••

— كما تشاء •

— هل هذا وعد ؟

— نعم ، وعد •• نعم • أرجوك أن تسمح لى •

فى المكتب ابتسم المدير ابتسامة حزينة ••

نظر خلفه عبر النافذة المفتوحة وكانت تطل على فناء المدرسة الترابى الأجرد •• تطل على ملعب خال مخطط بالطباشير تقسمه شبكة •

ظل يمسك الورقة بيده وهو ينظر عبر النافذة صامتا ••

قلت ، وخرج صوتى خشنا : أرجوك أن توقع الورقة •

أريد أن انتهى من هذا الموضوع اليوم • سوف انهى كل
الاجراءات بنفسي •

— لا تتعجل •

— أشكر لك النصيحة • أرجوك • بسرعة •

— أنا لا أنصحك • لا أعرف أن أنصح نفسي • أولا أنا
لا أملك أن أوافق على استقالتك •

— ولكن لماذا ؟ • لا • لا تلق على خطبة • وقع
وليته الأمر •

أدار بصره فحوى فجأة ، وقال بصوت مرتفع :

— ولماذا ألقى عليك خطبة ؟ لم تتصور أنك • • ؟ لم
تتصور أنني • • ؟ حتى أنت ! حتى أنت ! • • وبعد أن وقعت
معى فى نفس المصيدة ! تريد أن تسمرنى فى الصورة التى • •
ألم تتعلم بعد ؟

اختنق صوته ، ووضع يده على وجهه • فى نفس الوقت
ضرب جرس المدرسة • رأيت من مكاني أبواب الفصول
تفتح — والبنات يندفعن من الفصول بشباب زرقاء داكنة — وراح
صياحهن الرفيع يرتفع بالتدريج • قلت بصوت خافت : ما الذى
يجب أن أقول ؟ أرجوك أن تقول لى •

رفع يده من على وجهه وقال بصوت جاف وهو ينظر لى
دون أى تعبير فى عينيه - لا أستطيع أن أوافق على استقالتك •
لا أملك ذلك • اليوم ، الآن ، صدر قرار بنقلى من الادارة •

ثم ضحك ضحكة قصيرة وقال - لم يوضحوا حتى مكان
النقل • قال المدير العام ان كل شىء سيتضح بعد أن تنتهى
التحقيقات • أتعرف متى تنتهى ؟

- ما الذى يجب أن أتعلمه ؟ ••

سكت ، وكانت الصيحات الرفيعة تملو وتختلط الى أن
صارت صرخة واحدة متقطعة تتكرر باستمرار •

فنجان قهوة

اتتهى بسرعة الغداء المكون من شوربة عدس خفيفة وبصل في الخل • وأخذ الابن الأكبر « سمير » الطالب بالجامعة يضرب الطبق بالملقعة بصوت رتيب • وانشغل مدحت الابن الأوسط بتكوين كرة صغيرة من فتافيت الخبز ، وراحت ليلي التي بقيت في البيت بعد الاعدادية تداعب شعر « ماجد » الصغير - ولكن ماجد طلب طبقا آخر من العدس • قالت الأم ليلي أن تحضر طبق العدس وحذرتها أن تسرف في الغرف • وعندما جاءت ليلي نصحت الأم لـ ماجد ومنى تقبله أن يأكل « نونو • نو » •

قال سمير وهو يضرب طبقه بالملقعة للمرة الأخيرة ان هذا لا يمكن أن يستمر فقالت الأم انها قابلت « سعيد أفندي » بخصوص المعاش فوعده باستعجاله ، وعلى العموم فمعها كارت من محسن يه •

سأل سمير :

— وعمى حامد ؟

فأوضحت الأم أنه معذور هذه الأيام وقد اقترض ليغطي مصاريف جنازة المرحوم . صرخت ليلى فجأة « يا حبيبي يا بابا » ، ورمت رأسها على ذراعها فوق المائدة وراحت تبكي . تمتت الأم بصوت لا يسمع « كفى .. كفى » — ولكن أحدا لم يقل شيئا فأصبح بكاء ليلى مخرجاً وسط الصمت ، وانتهى بسرعة ، بينما راح ظهرها يرتجف في ثوبها الأسود الجديد وهي تنهه بصوت خافت .

دق جرس الباب واتضح أنه العم حامد . كان يلبس الجلباب البلدي ومعطفا صوفيا ويتكلم برزانة حتى لا يكتشف أحد أنه شرب زجاجتي بيرة . دخل غرفة الجلوس حيث كانت صورة كبيرة للمرحوم حولها شريط أسود جلست تحتها الأم وعلى حجرها ماجد وبجوارها ليلى وبقية الأولاد ، وجلس الحاج حامد قبالتهم واضعا يده على فمه حتى لا ينتشر النفس والكحول ثم أشعل سيجارة . قال العم حامد ان سبب تأخيريه أنه كان في دمياط ، وأنه يفكر في ترك تجارة الأخشاب ، وان صحته لم تعد تحتمل السفر الكثير ، وانهم لا يجب أن يحزنوا كثيرا لأن من يموت يستريح بينما الحي وحده هو الشقى . وضرب مثلا : ها هو أمامهم مثلا .. من عشرين سنة وهو في

سفر من مصر الى دمياط ومن دمياط الى مصر فماذا أخذ من الدنيا ؟ .. لم يأخذ شيئا من الدنيا بل ركبته الهموم والديون .
ثم لوى ذراعيه ووضع يديه على كتفيه ليصور كيف ركبته الهموم .

تنهدت الأم :

— ربنا يعطيك القوة .

فتنهد العم حامد أيضا :

— الحمد لله .. الحمد لله على كل حال .

سألت الأم :

— وكيف حال أم شوقى وسى شوقى ؟

فقال العم حامد :

— والله أم شوقى مريضة وراقدة والا لانت كل يوم ..
ولكن يعلم الله انها تبكى ليلا ونهارا وتكاد تقتل نفسها حزنا على المرحوم .

قالت الأم انها تعرف أن أم شوقى أخت وحبيبة ، ودعت الله ألا يسيء اليها في الحاج أو في شوقى أو الأولاد . ثم التفتت الأم لليلي وقالت لها أن تعد قهوة لعمها حامد .

خرجت ليلي من غرفة الجلوس ثم نادى مدحت بصوت خافت • وفى الصلاة طلبت منه أن يجيء بين وسكر من البقال على الحساب • ورفض مدحت وقال انه ليس خادما لأحد ، ولكن ليلي أقنعتة فى النهاية •

— ماذا تريد أن يقول عم حامد ؟ بعد أن مات المرحوم لم تعد عندهم حتى القهوة ؟

احتقن وجه مدحت ، وصفق الباب وراءه بشدة وهو يخرج •

ذهبت ليلي الى المطبخ وأشعلت (الوابور) • أطلت من باب المطبخ فلم تر أحدا ففتحت نافذة المطبخ الصغيرة وعادت تقف أمام الوابور وقد راح يوشوش حتى ملأت وشوشته المطبخ الخالى • كان هذا الصوت يحزنها دائما ولم تدر لماذا • ووقفت تحديق فى اللهب الأزرق والرغبة فى البكاء تنتابها من جديد وفكرت : (ما فائدة البكاء على أى حال ؟ • لا يفيد البكاء فى شيء • فى العزاء كانت النسوة يحطن بى بطرحهن السوداء ويقلن « ابكى • ابكى يا ليلي • خففى عن نفسك • ستجنين لو بقيت ساكنة هكذا » وكنت أريد أن أبكى لأتخلص من الحاحن وليتركننى لنفسى ولكنى لم أستطع • وعندما استطعت أن أبكى لم أشعر انى أحسن • لا فائدة • لا فائدة من شيء • المرة الوحيدة التى بكيت فيها فى

العزاء أتت عندما فكرت في أحمد . شعرت ساعتهما أنى خائنة
ومجربة . لا فائدة . الكل ينسى . حتى أنا أنسى . نعم ، أنا
أيضا خائنة . في قلب العزاء وبينما كنت أفكر فيك يا أبى فكرت
في أحمد . ساعتهما صرخت « يا حبيبى .. يا بابا يا حبيبى
يا بابا » .. نعم .. نعم .. كان حبيبى عندما رآنى أبكى مرة
أخذنى الى غرفته وقال لى « لماذا تبكى حبيبتى ؟ » وعندما
سكت ضحك وهمس فى أذنى « بسبب شوقى ؟ » قال أنا أعرف
انك لا تحبينه وأن أمك تشاجرت معك بسببه . بالأمس سكت
لى أمك من انك تقطين فى وجهه وقالت لى أن أكلمك لتعقلى .
قلت « لا أحبه يا بابا » فقال « ولا أنا .. لن تتزوجى شوقى
ما دمت لا تحبينه ، وقطبى فى وجهه كما تريدین . لا تفعلی
شيئا لا تحبينه » ثم قبلنى وضحك . قال « ولا تدعى أمك
تعرف انى قلت لك هذا » لم يتركنى الا بعد أن ضحكت .
كان يحبنى ، وبرغم كل شىء . فما أنا أنسى أيضا . لا فائدة .
ولكن يا ربى .. لماذا أنسى ؟ .. ولماذا أفكر فى أحمد
وأنا لا أريد أن أفكر فيه ؟ .. لماذا أريد أن أراه ؟ .. لماذا
أشعر بدونه انى ناقصة ؟ .. نعم .. عندما مات أبى نقصت
مرتین .. نقصت عندما مات ونقصت عندما لم أعد أرى أحمد .
وأنا أعلم أن هذا عيب .. انه حرام .. ولكننى لا أستطيع
شيئا .. سامحنى .. سامحنى يا ربى .. سامحنى يا أبى .

كانت تتمم دون صوت « سامحني .. سامحني » ..
عندما سمعت النداء الخافت « ليلي ... ليلي » فاندفعت نحو
النافذة وقد أخذ قلبها فجأة يدق بسرعة • أطلت في كل النوافذ
المجاورة وعندما لم تجد أحدا قالت لأحمد في النافذة المقابلة :

— ماذا ... ماذا تريد ؟

— ليلي ، لا بد أن أراك •

— أنت تراني الآن •

— ولكن من يؤمن لم أراك • لن ينفع هذا • لا أرفع
عيني عن نافذة المطبخ •

— أنت تعرف ... تعرف الظروف •

— نعم ، ولكن ما معنى الحب اذا لم نشترك في كل شيء ،
في الحزن والفرح ؟

— وماذا سنعمل ؟

— قابليني الليلة وسنفكر ماذا نعمل •

.. مستحيل ، قلت لك لن تتقابل قبل الأربعين •

قال الحاج زكي البقال لمسحت وهو يعطيه لثافة صغيرة من
البن والسكر :

— أريدك في كلمتين يا مدحت يا ابني .

ثم اتحنى به في ركن من المحل ، بعيدا عن زحام الزبائن ،
أمام أرفف اللحم المحفوظ في طب عليها صورة رأس بقرة .



في غرفة الجلوس شعر العم حامد بخجل من نفسه لأنه
عرف أن كثرة التدخين لا تقضى على رائحة البيرة وتوهم أنه
يرى الاشتزاز في عين سمير فماد يضع يده على فمه متظاهرا
بالتفكير العميق . وقال بعد صمت طويل وتنهد أنه بحث مع
سعيد أفندى كل شيء فاتهيا إلى أن المعاش وحده لن يكفي .

قالت الأم إنها لا تعرف كم يكون المعاش ، وإنها إلى أن
مات المرحوم لم تكن تعرف كم المرتب ، إذ لم يكن البيت
ينقصه شيء وكان كل ما تطلبه يجده .

أشعل عم حامد سيجارة جديدة وقال :

— هذا هو السبب في أنني أريد أن أكلبك أنت وسمير
أفندى . لقد كان المرتب قليلا في الحقيقة ، ولكنه رحمه الله كان
يعمل جهده لتعيشوا أحسن عيشة .. وأنا لا أدري .. أعني
أننى أدري أن المعاش لن يكفي لسداد أجرة البيت ولهذا تكلمت
مع سعيد أفندى . ليس غريبا .. سعيد أفندى زميل المرحوم في
المكتب وكان صديقه الروح بالروح .. ولهذا تكلمنا بصراحة .

قال مدحت وهو يشعر بأذنيه تلتهبان بينما يحاول أن
يثبت نظره على رأس البقرة المقطوع حتى لا يبكى :

— يا حاج زكى آل .. آل .. المعاش .. بمجرد صرف
المعاش سندفع الحساب ، ولكن +

قال الحاج زكى وهو يشيح بوجهه عن مدحت ويمسح
عرقه بكم جلبابه :

— يا مدحت يا ابنى أنا لست قليل أصل .. وأنتم خيركم
على ولا يمكن أن أنسى جميل المرحوم + من عيني يا ابنى
اتكلم فى هذه الظروف ولكن الله .. والله ما معى شىء ..
حساب الزبائن فى أول كل شهر أدفعه لحساب البضاعة فى أول
كل شهر + بدون هذا لا يمشى الحال + أقظر هذه الفواتير
هذه الكمبيالات ..

قال سمير لعم حامد :

— وزارة الأوقاف ؟ اعانة ؟ هذه شحاذة .. كيف تفكر
فى هذا يا عم حامد ؟

— يا سمير يا ابنى ليست هذه شحاذة + هذا حقك ؟
هذا حقكم + دعنا نتكلم بالكلام .. أعنى دعنا نشحذ بالفعل ..
أعنى دعنا نتكلم بالعقل .. أنريد أن يجوع أخوتك الصغار ؟

وليلي ألا تلزمها مدرسة ؟ .. أعنى ألا يلزمها جهاز ؟ .. لقد أصبحت ليلي عروسة ..

نزل العرق البارد من جبين عم حامد وأخذ يحرك يديه في عصبية وهو يفكر .. لا فائدة + لا فائدة لقد انكشف + عرفوا أنه سكران وسوف يحتقرونه .. لكنه قال وهو يضغط على كلماته ويحيل بينهما عينين واسعتين مهتمتين :
- ليلي أصبحت عروسة .

ثم تراجع للوراء محاولاً أن يستعيد نفسه ، ولكن سمير قال في اصرار :

- هذه شحاذة ..

لوح عم حامد بيديه في يأس وهو ينظر للام + بدأت الام تبكى وهي تقول :

- اسكت .. اسكت يا سمير يا ابني ..

وبدا ماجد الصغير أيضاً يبكى مع أمه فراحت الام تهزه على رجليها دون وعى ولكن سمير قال :

- لا ، هذه شحاذة + اذا كان المعاش ضئيلاً فيمكن ، أن أشتغل ..

قال العم حامد دون أن يشعر - تكلمت في هذا أيضا مع سعيد أفندى • بدأ صغير غريب في اذن سير ولم يعد يسمع الكلام ، بل أخذ يعبث بكم جاكته البيجاما وهو يحضى رأسه كان يفكر بان حياته سوف تنتهى •• تكلم العم حامد مع سعيد أفندى ورتبا كل شئ •• سيشتغل في وظيفة صغيرة ولن يصبح معيدا في الجامعة كما كان يحلم • وتذكر فجأة منظر الموظف السمين الأشيب الذى رآه لأول مرة يجلس أمامه في خيمة الامتحانات بالكلية • ساعتهما التفت هو الى منيرة وتبادلا الابتسام وهمست منيرة « لا بد أنه يمتحن بالنيابة عن ابنه » وعندما تذكر سير ذلك شعر بالحزن والخجل ثم كره عم حامد ، وسعيد أفندى ، وأخوته لأنهم أنهوا حياته • أما منيرة فلن •••••



قال أحمد ليلي :

- كوني معقولة •• بعد الأربعين ستكون امتحانات الكلية ولن أستطيع أن أراك •

قالت ليلي :

- اذن بعد الامتحانات •

- كيف ؟ .. هذا وقت طويل . لا أستطيع أن أنتظر كل
هذا الوقت . ألا تفهمين ؟ أريد أن أراك .

- أنت لا تفكر في أبدا .

- ولكن ما معنى هذا ؟

- أنت تريد أن تتفسح ولا يهلك شعورى .

- أنا .. أنا لا أريد أن أتفسح . أريد أن أراك .

- اذهب الآن . جرس الباب يدق .

- اسمعى . سأنتظرك الليلة . الساعة ٧ نفس المكان .

- مستحيل .

- وبينما كانت تغلق نافذة المطبخ بسرعة كان يقول

بصوت أعلى :

- « سأنتظرك .. سأنتظرك » .



عندما فتحت ليلي الباب قذف مدحت لفافة البن والسكر

على المائدة .

فقال له « مالك » ؟

صرخ - لا شأن لك بى . غورى .. اعلى القهوة .

دخل مدحت غرفته وأغلق الباب وثام واضعا الوسادة فوق

رأسه حتى يتظاهر بالنوم لو دخل أحد • لم يكن يريد أن يكلم أحداً ••• « كلهم كلاب » •• يجلسون في البيت مرتاحين ويعثون بي الى البقال والجزار لأموت من الخجل • لماذا لا ينزل سمي مرة ؟ أم أنه (يه) لأنه في الجامعة ؟ أنا لم أعد صغيراً أيضاً •• أأست رجلاً ؟ ولماذا يتأخر المعاش ؟ وكم سيكون على أى حال ؟ كان سمي يقول ان المعاش قليل لن يكفي لشيء • وما دام المعاش قليلاً فلا بد أن المرتب كان قليلاً • اذ كيف كان أبى يدبر أن يعيش هذه المعيشة بمرتب قليل ؟ آه لن أنس ما قاله هذا الكلب في سراق العزاء • الكلب • في سراق العزاء ويقول ••• ولكن لا •• لا لن أفكر في هذا •• « في المدرسة ، في المدرسه ينظر الى الأولاد بعطف • كم أكره هذا •• منير كان يخاصمنى فصالحنى بعد أن مات أبى • كأنه يعطينى حسنة • الكلب • سأخاصمه في أقرب وقت • لا أريد حسنة من أحد • وعمى حامد يبدأ بالشكوى حتى لا يطلب أحد منه شيئاً « أريد أن أترك التجارة » أم شوقى مريضة •• ماذا أخذت من الدنيا » •• لماذا يقول هذا الكلام ؟ ومن طلب منه شيئاً ؟ أمى تريد أن تزوج ليلى لشوقى وعمى حامد يتظاهر أنه لا يفهم •• لو كنت أستطيع أن أقول لها كى تكف عن هذا •• ولكن ألم يكن يستطيع أن يأتى الى البيت دون أن يسكر ؟ •• لم يمض شهر على وفاة المرحوم وما هو يأتى الى البيت وهو سكران •• كان يسكر مع المرحوم أيضاً ••

لا ، لن أفكر في هذا .. لن أفكر .. سوف أقرأ الفاتحة
 خمسين مرة حتى أنام بسم الله الرحمن الرحيم .. الحمد لله ..
 أبى كان يصلى أيضا ، سوف يغفر الله له أنه كان يسكر ولكن
 هل يغفر الله له أنه كان يسرق ؟ ماذا ؟ ما الذى يجعلنى أفكر في
 هذا ؟ سامحنى يا أبى .. سامحنى .. سامحنى .. ولكن
 لا أستطيع أن أنسى . لا أستطيع أن أنسى هذا الكلب الأصلع
 فى سرادق العزاء . لم يكن يظن أننى أسمع ولكنى سمعت ..
 يضع يده على فمه ويهمس لجاره النحيل « المرحوم يعنى كانت
 يده طويلة حبتين ولكن ربنا غفور رحيم » والنحيل الكلب يضع
 يده على فمه هو الآخر ويهز راسه وكأنه متأثر . كلاب . كانوا
 يكرهون أبى ، هذا كل ما فى الأمر ... » بسم الله الرحمن
 الرحيم .. الحمد لله رب العالمين .. الرحمن الرحيم .. مالك
 يوم الدين .. اياك ... كان المرتب قليلا وكنا نعيش مرتاحين
 فكيف ؟ لم تكن نملك أرضا .. لم يكن عندنا شيء .. ربما كان
 أبى يقوم بعمل آخر . أى عمل ؟ .. لم يكن هناك عمل آخر .
 ولكن سامحنى يا أبى لم أقصد .. كان أبى يصلى .. لا ، لن
 أبقى هكذا . الشيطان . الشيطان يضع فى رأسى هذه
 الأفكار .

قام مدحت فجأة والدموع فى عينيه . مسحها بسرعة ودخل
 الى غرفة الجلوس وجلس بجوار سمير وكان عم حامد يقول :
 - الزواج سترة .

وكانت أمه تقول :

— نعم بالطبع • أنت الآن والدها ، لا أحد يقول شيئا
ولكن .. هل هذا وقت التفكير في الزواج ؟

— يا ست أم سمير هل نحن نكللنا الآن عن الفرح ؟
هل أنا لا سمح الله لا أعرف الأصول ؟ .. ولكن هذا كلام
بيننا لا يسمعه غريب • والكلام يجبر الكلام • نحن تفكر في
المصلحة ماذا نريد غير المصلحة ؟ .. ومن يدري ؟ .. ربما كان
هذا عوضا من عند الله • والرجل ليس متمجلا — يمكن أن
ينتظر شهرا .. شهرين .. ثلاثة .. سنة حتى لو أحببتم •

وعندما قال العبارة الأخيرة لوح بيده وعيناه المحترتان
مفتوحتان على آخرهما ليصور استعداد الرجل للتضحية •
وأصت ملحت باتباه ليفهم والتفت الى سمير ولكن سمير كان
يهز رجليه في عصبية ويدو شاردا وعندما طال الصمت قال
العم حامد :

— وأنا الذي ظننت أن هذا الخبر سيريحكم •

فقال سمير بعد أن تنحنح :

— يا عم حامد .. أنت تشكر بالطبع ، ولكن الحقيقة ..

— ما الحقيقة ؟

— الحقيقة أنه في سن والدها ..

فقال العم حامد :

— من ؟ سعيد أفندى ؟

صرخ مدحت :

— سعيد أفندى ***

فقال سمير :

— أسكت أنت **

ومضى العم حامد دون أن ينتبه لمقاطعة مدحت •

— سعيد أفندى أصغر منى بعشر سنوات. على الأقل •

يمين بالله خمس عشرة سنة على الأقل ، وليلى ••

صرخ مدحت :

— لا تقسم •• سعيد أفندى عنده خمسون سنة على

الأقل •

كانت أمه تقول : « أسكت يا مدحت » وسمير يقول

« أخرس يا ولد » •

ولكن مدحت راح يصرخ :

— خمسون سنة وتريد أن تزوجه لليلى ؟ هذا بيع

وليس زواجا •

قال العم حامد :

— الله يسامحك ..

فقال مدحت وهو يبكي :

— ولا تتكلم عن الله أيضا .. أنت لا تعرف الله ..
أنت لا يهيك شيء .. أنت .. أنت أتيت الى البيت وأنت سكران
وتريد أن تزوج ليلي من سميد أفندي لأنك .. لأنك تريد أن
تتخلص منا و ...

وانتهى الصراخ بأن قام سمير وصفع مدحت على وجهه
فاندفع مدحت خارج الغرفة وهو يبكي ويصرخ : « لماذا
تخافون منه ؟ .. لماذا ؟ .. كلاب .. كلكم .. كلكم »
وأراد سمير أن يخرج وراءه ويضربه من جديد ولكن العم حامد
قام وهو يبتسم ابتسامه واسعة وأمسك سمير من يده وقال له :

— أقعد .. أقعد يا سمير يا ابني لا تفضب .. صغير ..

مدحت كابني « علاء » تماما .. هل أغضب من علاء ؟ ..
الانسان لا يغضب من ابنه الصغير ..

فجلس سمير وهو يقول :

— حقاك على يا عم حامد ..

فقال العم :

— لا شيء .. لا شيء .. فلنعد للكلام المفيد .

وعاد العم حامد يتكلم من جديد . كان هجوم مدحت قد حرره من الحرص والذنب فراح يتكلم بسرعة وحماس عن الحياة والموت ، عن المعاش والمعيد أفندي .. ولكنه سكت عندما دخلت ليلي غرفة الجلوس . كانت تتقدم بثوبها الأسود في ببطء وحرص حتى لا تنسكب القهوة وقد ثبتت نظرتها على وردة كبيرة جبراء مرسومة في الصينية التي تحملها ، ولكنها رفعت رأسها عندما قال ماجد : « ليلي » .

التفتت وهي تبتسم وكانت أمه تحيط وسطه بذراعيها المتشاحتين بالسواد ولكنه ضرب يديه الصغيرتين في الهواء وقال :

— ليلي . سبب ضرب مدحت . وعمي حامد قال مدحت ابني . مدحت وعلاء أولاد عمي حامد ..

نصيحة من شاب عاقل

جرى المعجوز خلفه وهو يعبر شارع « طلعت حرب » عند
سينما راديو وفاداه بصوت مرتفع « يا أستاذ عادل ا » . سمع
صرير سيارة جاهد سائقها ليوقفها فجأة ثم راح يلعن الرجل
المعجوز الذى لم يهتم به وأدرك صاحبه قبل أن يصل الرصيف
وأمدك ذراعه بأصابع رفيعة متشبثة ، تبادلنا النظر دون كلام
لفترة ثم فحى عادل يده عن ذراعه وسأله عما يريد .

قال المعجوز - أنا يا أستاذ عادل . أنا . ألا تذكرنى ؟ ..
كنت تشتري منى الأهرام كل صباح والكواكب كل أسبوع .
كنت أقف فى ركن شارعكم . خليل . .. عمك خليل .

قال عادل - وأنت ألا تذكر ؟ تقابلنا هنا كثيرا . تقابلنا
من أسبوع واحد ونصحتك ، ألا تذكر ؟ يظهر أنه لا فائدة .

بدأ يمشى بخطوات بطيئة — وعم خليل يتابعه • يتخلف عنه خطوة باستمرار ليمس ذراعه وهو يتكلم • قال بسرعة — آه يا سعادة البية ، تذكرت ، تذكرت • ولكن أنت لا تعرف • أنا الحمد لله تغيرت • أرجوك أن تستمع الى • أنا تغيرت خالص • والله العظيم والله العظيم لم أعد أعرف الأفيون أبدا • لم أعد أعرف شكله ولا طعمه • داهية تحرقه •

وقف عادل مرة ثانية فواجهه العجوز النحيل بعينين تغطيها غشاوة • كانت عيناه أيضا تفرزان دموعا صغيرة لا يلاحظها وكان يسمح شفقتيه بلسانه باستمرار •

قال عادل — حكيت لى هذا المرة التى فانت • قلت لك امتنعت عنه وتريد عملا • لماذا لم تعمل ؟ نكس عم خليل رأسه فى الأرض فبدت رأسه بشعرها الأشيب ضئيلة بين كتفى الجاكطة الرمادية الواسعة اللامعين بسواد القذارة ثم رفع رأسه على الفور وقال — كيف صحة الحاج ؟ والد حضرتك ؟

ضحك عادل ضحكة صغيرة وقال — بخير •

ثم عاد يمشى من جديد فتابعه عم خليل وهو يقول :

— ناس أمراء •

وبعد صمت طويل قال بصوت ضعيف - تعرف الحقيقة
يا سعادة البية ؟ أنا الآن تحت العلاج • أصل الكيف خرب
صدرى الله يحرق الأفيون ويومه • أصل سعادتك لا تعرف •
هل تذكر عمك خليل أيام زمان ؟ والله يا بيه ما كنت أعرف غير
شغلى وبيتى • فنجان القهوة كنت أبخل به على نفسى وأقول
البيت أولى بالقرش • الحكاية ناس ضحكوا على ناس • قالوا
لى الأفيون يشفى من الروماتيزم فعلقت فيه وخرب بيتى • كمان
هم البيت والعيال • خمسة أولاد وأمهم والقرش ضنين • حمل
ثقل على عمك خليل •• يعنى يا بيه بنى آدم لما الهم يزيد
عليه •• لكن الحمد لله هذا كان زمان • زمان واتهى • الحمد لله
ربنا نجانى وسأرجع للعمل بعد أن أعالج صدرى • أرجوك
لو سمحت أن تساعدنى - وسأردها لك عندما •• عندما ••
توقف فجأة ثم بدأ يسعل سعالا شديدا ويده على فمه ،
وأبطأ عادل سيره وهو يدير رأسه قليلا نحو المعجوز الواقف
يرتجفه بسعاله حتى كاد يختفى عن بصره فى الزحام • لكن
الرجل أسرع يلحق به قبل أن يتعد وقال بصوت لاهت تقطعه
سعات قصيرة :

- لا •• لا أستطيع أن أعمل قبل أن أعالج صدرى ••
يعنى مساعدة •• مساعدة بسيطة •• لو سمحت •• وسأردها
لك •

قال عادل يهدوء دون أن يلتفت اليه - أنت تكذب يا عم خليل • أنت لا تريد أن تعالج صدرك ولا غيره وانما تريد أن تشتري الهباب • كم مرة نصحتك ، وفي المرة التي فانت أعطيتك بريزة اليس كذلك ؟ ماذا فعلت بها ؟ صرفتها على الكيف اليس كذلك ؟

قال عم خليل محتجا - بريزة ؟ والله يا بيه البريزة لا تشتري أي ••• وأنا قلت لك الكيف كان زمان والله • الآن لا يمكن • سعادتك تعال معي ان أردت أن •••

وقف الشاب في الطريق وقال بلهجة حاسمة نافذة الصبر - اسمع • عندي كلمة واحدة • يجب أن تعالج نفسك • ادخل مضلحة لبمالجوك • ان أردت واسطة فلي صديق طيب وهو يستطيع •••

مد العجوز يده فأمسك بذراع عادل مرة أخرى وقال بسرعة :

- هيا بنا • الآن • رجلى على رجلك • الله يعمر بيتك • هيا بنا الآن الى صاحبك الدكتور •••

أخذ عادل يتطلع في حيرة الى الرجل العجوز المرتجف الذي يمسك بذراعه وهو يفكر في شيء يقوله ولكن عم خليل بادره قبل أن يتكلم - ولكن يا بيه يعنى قبل أن نذهب للدكتور

أرى أولادى أولا • يجب أن أرى أولادى وأدير أمورهم •
• ساكن يا بيه • من أين يأكلون لو دخلت المصحة ؟ يعنى
سؤال • يعنى لا مؤاخذه أمهم تسرح وتبيع روحها ؟ يرضيك
يا بيه ؟ يرضيك ؟ • أنا • أنا أصلى لم أقل لك • أنا فى
الحقيقة دخلت مصحة • يعنى عالجت نفسى وشفيت والحمد لله •

المسألة الآن صدرى والكحة • أريد أن أذهب للدكتور
ليرى صدرى أقصد يعنى بالأشعة • أرجوك أن تساعدنى
يا بيه • حق الدكتور فقط •

كان يقفان أمام سينما ميامى فى نقطة مزدحمة من الشارع
والناس يدفعاها قليلا ليعبروا الزحام • ووجد عادل نفسه أمام
صور الفيلم المعروض فاكشف انه يتطلع من مدة الى صورة
البطلة الجميلة وهى تستلقى على سرير محلولة الشعر وثوبها
ينحسر عن فخذيها المرفوعين وانه لا يكاد يسمع شيئا مما يقوله
عم خليل • وعندما تذكره نحى ذراعه وقال •

— هى كلمة واحدة • لا تحاول •

وحين عاد السير قال العجوز وهو يضحك ضحكات قصيرة
ويهز رأسه كمن اكتشف سرا • أنا أفهم يا بيه • أنت قلبك على
عمك خليل ، ولكن كما قلت لك ، أنا وجدت عملا والحمد لله •

سأفتح كشك جرائد وأعود كما كنت • سأعود أحسن مما كنت
بإذن الله (ثم أضاف بصوت خفيض) المسألة الآن باختصار
والأمر لله انه لا توجد لقمة في البيت • ساعدنى لو سمحت •
يكفينى حق الأكل للأولاد •

قال عادل بعصبية — أنت يهيك أولادك أنت ؟ • أنت
لا يهيك الا الزفت الأفيون •

قال المجوز — حتى الأفيونجى بنى آدم يا سعادة اليه •
أنا أيضا أحب أولادى •

قال عادل — أبدا • لا يمكن • الانسان الذى يترك شغله
وبيته من أجل ال • • كم مرة قلت لك ؟ • • أنظر الى • أنا
مهندس • أعمل بالنهار وبالليل • فى الحكومة وفى شركة •
أهلك نفسى من أجل أن أجمع القرش • لماذا ؟ • • هل اشتريت
سيارة مثلا لأريح نفسى من المواصلات على الأقل ؟ أبدا •
كل مليم أكسبه أدخره لأحمى مستقبل ابنى • صحيح أنه ما زال
فى الحضانة ولكن لابد أن يعمل الانسان حساب المستقبل
يا عم خليل • ومن يدري ربما يأتى غيره • لابد أن يطمئن
الانسان للمستقبل ثم يلتفت بعد ذلك لنفسه • لماذا لا تتعظ
يا عم خليل ؟ أنظر الى الناس من حولك • أنظر الى أنا نفسى •

كان المعجوز يستمع اليه ويهز رأسه مؤمنا على كلامه ولكن عينيه الزائفتين تكشفان أنه لا يتابع الحديث . وعندما انتهى المهندس قال له - تمام يا أفندم الحمد لله . كما قلت لك ربنا شفائى (ثم ضحك ضحكة صغيرة مفاجئة) كنت صغيرا هكذا وكنت تأتى لتشتري الجرنال لبابا . عى خليل ! الأهرام ! أتذكر ؟ .. ثم وقف مرة أخرى وأمسك يد المهندس وقال :

- ارحمنى يا ييه .. أبوس ايدك .

خلص المهندس يده بسرعة وقال - هذا الكلام شبعنا منه . ثم بدأ يمشى بسرعة والمعجوز يعدو وراءه تقريبا وهو يقول : - أى مساعدة يا ييه . أى شىء .

- ارجع لأولادك وأعقل .

- سوف أعقل يا ييه . سأفعل كل ما تقوله والله . سيادتكم تريد أن أضع الأولاد فى الحضانة أليس كذلك ؟ سأفعل .. سأفعل . ولكن تلزمنى مساعدة ، ولكن ...

مد المعجوز يده من جديد وأمسك ذراع المهندس وأوقفه بالقوة تقريبا ، وقرب وجهه منه . كانت عيناه الآن تدمعان باستمرار وعضلات وجهه تختلج اختلاجات سريعة. ثم قال بهمس :

— اسمع • لا داعي لأن نضحك على بعض • لا تخجل
من عمك خليل • أنت رجل جدع وأنا أحب أن أخدمك •
اسمع ولا تقل شيئاً • بيني وبينك يعنى أنا أعرف امرأة جميلة
كالورد • هس • لا تتكلم • تمتع بشبابك وملعون أبو الدنيا ،
كالورد والله • مسافة السكة وتكون عندك • لا تقل شيئاً •
عمك خليل يريد أن يخدمك • قال المهندس — أنت جنت
يا رجل ؟

فقال المجوز — اسمع • أنا أعرفك • من يومك وأنت
ابن حظ • رأيتك مرات كثيرة مع بنات ولم أتكلم • أنظر •
عمك خليل لا يفتح فيه أبدا • هس •

وضع المجوز أصبعه على فيه ثم مسح عينيه بظهر يده
فبقى خده الضامر مبتلا وأخذ يضحك ضحكات صغيرة متقطعة
وهو يتكلم بسرعة وهمس :

— أنا لا افتح فمي ولكننى أحب الجدعان • لا أريد منك
شيئاً أبدا • حق التاكسي ومسافة السكة تكون عندك •
أنت لم تقل لعمك خليل كلمة واحدة حلوة ولكن لا يهم •
ماذا يهم ؟ أنت يعنى مثل ابني •• يعنى أنا لا أعمل هذا من

أجل مخلوق ، ولكن ان أردت أن تساعد عمك خليل ، أو يعنى
أنظر . حق التاكسى فقط . اسمع . ان كنت لا تصدق فخذ
بطاقتى حتى أعود .

بدأ يفتش بيده المرتعشة فى جيب الجاكتة الداخلى ،
وبدأت دموع جديدة تتسرب من عينيه فقال له المهندس .

— أنت وصلت لهذه الدرجة ؟ أنت الموت أحسن لك .

ثم تركه ومشى بسرعة وهو يكاد يعدو تقريبا . وبقي
المجوز الذى نجح فى اخراج بطاقته واقفا مكانه وهو يلوح له
بالبطاقة ويقول :

— تعال يا ييه . أنت لم تفهمنى . أنت لم تفهم .

وحين رآه يعبر الشارع مرة أخرى اندفع يجرى
وراءه . — وحين صرخت الفرامل وصدمه الشيء الثقيل فى الطريق
سقط المجوز على الأرض ، لكنه نهض بجذعه كله مرة واحدة
دون أن يرفع ساقيه وقال « آه » قبل أن يسقط من جديد
مفرد الذراعين وتنقلت البطاقة بجانبه على الأرض .

كان ذلك بعد الغروب . فى الضوء الأخير قبل ان يهبط
الظلام . خرج سائق السيارة مذعورا يتطلع للرجل الأثيب

المفتوح العيين وتجمعت دائرة داكثة من المارة حول السيارة البيضاء ، قال أحدهم « رأيته يكلم رجلا منذ قليل » ، وقال آخر « نعم » ، شاب ، ورأيتة يعبر الطريق . ولكنهم عندما فتشوا عن هذا الشاب بأعينهم لم يجدوه .

كان هو أيضا قد شاهد الحادث واندفع ليمود ويرى ما جرى . لكنه ترقف فجأة وقال لنفسه (سيأخذوننى شاهدا ويعطلوننى بلا فائدة . وأنا تأخرت بالفعل عن موعد الشركة) ثم دخل مسرعا فى المر الذى صادفه . وبعد ان ابتعد توقف مرة ثانية وقرر أن يمود لكن قال لنفسه (ان كان قد جرح فسوف يعالجونه وربما يحصل على تعويض . وان كان قد مات فلا فائدة . ربما يحصل أولاده على تعويض ينفعهم) . كان قلبه يدق بسرعة ، لكنه مشى بسرعة ولم يرجع .

وهناك انحنى أحدهم والتقط بطاقة الرجل المجوز . أخذ قلبها وقرأ اسمه واسماء أولاده قبل أن يعطيها للشرطى الذى كان يستمع صامتا للسائق وهو يشرح مشيرا بيديه الى صدره وملوحا للرجل الميت دون أن ينظر اليه .

فهرس

- بالأمس حلمت بك ٧
- سندس ٤٥
- النافذة ٥٥
- فنجان قهوة ٨٣
- نصيحة من شاب عاقل ١٠١

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٦٠٢ / ٨ / ١٩٩٩

I.S.B.N 977 - 01 - 6152 - 7